الدكتور كاظم المقدادي

أوراق باريسية

منشورات العالم العربي

ema

أوراق باريسية



٣٠ جادة جورج الخامس باريس ٨ فرنسا
EMA 30 Avenue George V 75008 Paris-France.
Tél: 723.78.08 / 723.85.38 Télex: EMAFIR 630173 F

الدكتور كاظم المقدادي

أوراق باريسية

"منشورات العالم العربي" في باريس ema
بالتعاون مع مؤسسة "رقيب الأحوال" في بيروت

ISBN: 2 - 86584 - 010 - 7
الطبعة الاولى شباط ١٩٨٤

إهـــداء

في الـلحـظات الأخيــرة لـلسـفــر إلى باريس. . وقبل ما يقارب عشـرة أعوام. . أقتربت قائلة:

. . . سوف تدهشك أوروبا بمـظاهرهـا الـعجيبـة. . وستعــدو في شــوارعـهـا وساحاتها. . وستطارد نساءها. . لكن تذكر إن الحنين سيجرفك يوماً إلى حياة الوطن. .

وتابعت هامسة:

«. . أو لم تكن مثل نخلة عراقيـة. . لا تترك أرضها بسهولة. . ».

مِن الناشِـر

بين دجلة والسين صلة حضارية قديمة، لعل ابرزها العلاقات المميزة التي نشأت بين الخليفة العباسي هارون الرشيد وبلاط شـارلمان الفـرنجي. والهدية التذكارية التي تحتفظ بها اوروبا ترمز الى تعطشها للمعرفة التي عمت شتى جوانب الحياة العربية في ذلك الزمان، وكانت «الساعة ـ الهدية» تعبيرا عن جانب بسيط منها.

والعراقيون، بشكـل عام، فخـورون بالعـراق وتراثـه وتاريخـه، ولا يضاهي ذلك عندهم الا حبهم لعروبتهم وتعلقهم بالانتماء الى الوطن الكبير. فقد زارني مرة في بيروت صديق عراقي في اول رحلة له خارج القطر، صيف ١٩٦٨، في طريقه الى احدى دول اميركا اللاتينية. وكان لا بد له من التوقف في باريس ذهابا وايابا. لم تطل غيبته، فظروف التغيير وحداثة عهد الثورة كانت تقضي بعدم الابتعاد طويلا. وفي طريق العودة، عبر بيروت، سألت صديقي عن انطباعـاته الاولى حـول باريس، والشـانزليـزيه ونهر السـين، في الليل والنهار... فباريس «ام الدنيا» بالنسبة لنا نحن اللبنانيين. واذا به يفاجئني قائلا: «يا صاحبي... إن مشوارا واحدا في شارع «ابو نواس» على ضفاف دجلة، يساوي كل ما في باريس من جمال». ومع انني من المعجبين بليالي بغداد القمرية وبالنزهات الحلوة على ضفاف دجلة وكل ما قيل فيها من شعر جميل، فقد وجدت في انطباعات صاحبي شيئا من المغالاة لعله التعبير عن الثقة العالية والاصرار العنيد على الهوية الوطنية والاعتزاز بها، في مرحلة تلاشت فيها ثقة الكثيرين بكل ما هو عربي. على ان الفرصة لم تتح لي سؤاله، بعد مضي ١٥

عاما على الثورة في العراق وما حققته من انجازات وانتصارات على اكثر من صعيد، عما اذا كان ما زال يحمل نفس الانطباع بعد زياراته العديدة لباريس.

«اوراق باريسية» هي انطباعات عربي في العاصمة الفرنسية، هو ايضا قدم اليها من ضفاف دجلة. لكنه جاءها دارسا وطالب علم وطالت اقامته فيها كاتباً وصحفياً لامعاً وهب كل وقته وجهده للثقافة، دون ان ينسى هموم الوطن وقضاياه، بل رافقته هذه الهموم الى مقاعد الدراسة فمكاتب الصحافة والنزهات الباريسية الجميلة... والدكتور كاظم المقدادي في انطباعاته الباريسية انما يعبر عن وجدانه العربي الاصيل بعمق وصدق ويعكس تفاعله الحي والمبدع الخلاق مع هذا العالم الثقافي والفكري الجديد. وهكذا جاءت تأملاته التي نقدِّمها للقارىء العربي تعبيرا عن عملية التواصل الفكري والحضاري التي تنهل من معين التراث لتجدد هذا التفاعل الحي بين حضارات الشعوب المختلفة من اجل تقدمها وخيرها وسعادتها. والأسلوب الخاص الذي سيلحظه القارىء وهو يتابع فصول هذا الكتاب يبشر بميلاد كاتب عربي، هو في الواقع، صورة حية عن المستوى الذي بلغته علاقة العراق الجديد بالعصر.

« منشورات العالم العربي » في باريس

ورقـــة للقـــراءة

. . . قبل أكثر من قرن . . وقف رفاعة الطهطاوي مندهشاً أمام المظاهر اليومية التي شاهدها في باريس . . والطهطاوي لم يخف أعجابه . . ولا حبه لهذه الحياة الجديدة . . غير أنه ثغر فاه أمام حرية المرأة في أوروبا . . وأول ملاحظاته التي كتبها . . تلك التي تتعلق بمصاحبة النساء للرجال في الشوارع والمقاهي والمراقص ! .

. . ترى لو عاد اليوم رفاعة الطهطاوي من جديد . . وشاهد الباريسية تقبل عشيقها بحرارة على قارعة الطريق . . لو شاهد المراهقات وهن في سن مبكرة جداً يسهرن في المراقص والحانات . . لو شاهد مظاهر الجنس الرخيص في غابات باريس الليلية . . وفي حدائق النهار . . ترى ماذا سيكتب؟ . . وماذا سيقول . . ؟

حقـا ومهما ستكـون درجة ثقـافة العـربي الوافـد من الشرق . . فـأنه سيصطدم بمظاهر الحياة اليومية التي يـرصدهـا في الشارع والمقهى ومكـاتب العمل . . إنها حالات ربما لا تحدث حتى في بيوت العرب وضمن طقوسهم العائلية الخاصة .

لكن كيف سيكـون موقف العـربي . . هـل يعـاشـر القـوم ويصبـح مثلهم . . ؟ هل يرفض وهو الذي ينشد الحرية والحياة . . ؟ هل ينطلق . . أم يتقوقع على نفسه؟ .

ربما يقف الأول مشدوهاً ولا يعرف ماذا يعمل . . ؟! وربما يقبل الثاني

ويرسل صورة مع «الشقراوات» إلى الأهل والأصدقاء ليثبت شهادة نجاحه في الحياة الجديدة. . لكن الحقيقة سوف تظل أبعد من هذا وذاك.

لقد جسد بعض الادباء العرب الذين عاشوا هنا فترة طويلة بعض ملامح هذه التحولات التي تهز العربي في صميمه وفي وجدانه.

لقد كتب توفيق الحكيم روايته «عصفور من الشرق» عام ١٩٣٨.. وعالج فيها لقاء الشرق بالغرب. . وتحدث من زاوية شرقيه كيف ينظر العربي إلى الحياة الغربية. . وإلى المرأة بالذات.؟

وكتب الدكتور سهيل أدريس روايته الشهيرة «الحي اللاتيني» وتطرق كذلك الى موقفه أزاء الحياة الأوروبية. . ونظرته للمرأة الفرنسية. .

. . وهناك كتابات آخرى عالجت نفس المشكلة. . كرواية «قنديل ام هاشم» ليحيى حقي. . ورواية «موسم الهجرة الى الشمال» للطيب صالح.

ومن خلال المرأة حاول هؤلاء جميعاً تقديم حوار إنساني ملتهب عن علاقة الشرق بالغرب.

«أوراق باريسية» تتحدث عن مظاهر الحياة اليومية في الشارع. . ثم ألم يقل بلزاك إن الشارع عالم خاص وكبير.

هناك أوراق كثيرة. . واحدة للمرأة. . وثانية للعرب. . وأخرى للكلاب. . ورابعة للحياة. . لكن. . لكن الأوراق كل الأوراق ظلت للوطن.

دكتور كاظم المقدادي
باريس ١٩٨٣

ورقة مغترب

وظل صاحبنا يعدو.. يطوف المدن والبلدان، بحثا عن وجه الحقيقة. وعند الزحام يموت صوته.. وفي السكون ايضا.. هنا يسمع همسا صاخبا.. ثم يجد صوته في صوت الوطن.

وللوطن في المهجر طعم خاص ورائحة خاصة وايقاع متلون بتلاوين الحب والحياة. وكلما ابتعد صاحبنا عن الوطن احبه اكثر وتقرب اليه اكثر عندها، شعر ان الوطن في المهجر مخلوق لا ينفك عنه ابدا ينام ويستيقظ معه.. يضحك ويبكي معه.. ياكل ويشرب معه.

هذا الوطن نقيض الاغتراب كما ان الاغتراب نقيض للوطن، والقلب المغترب له حالات خاصة.. لا يعرفها الا من جربها واكتوى بنارها.

وصاحبنا الذي قرر الاغتراب منذ حفنة من السنين يدرك هذا جيدا لانه يعيش على ارض بلا وطن ووطن بلا ارض ويشعر في لحظة ما انه ليس الا نزيل حدود ثلجية وزائر غريب يرى نفسه في عيون الذين لا يشعرون بوجوده.

قلق يومي وهلوسة.. وشعور مستمر بالمرارة.. وضريبة نفسية يدفعها الى شوارع وحانات وبنوك المهجر.

وكثيرا ما يحاول صاحبنا مداعبة نفسه.. فيتظاهر بالفرح والحرية.. و«يعربد» على طريقته الخاصة في مقاهي باريس وازقة الحي اللاتيني ويجعل من نفسه عصفورا سعيدا لا يعرف الحدود!.

ولكنه سرعان ما يكتشف نفسه، من خلال خبر صغير يدسه المذياع في اذنه، او من خلال اغنية عربية راحت تصدح في اعماقه «خليك هنا.. وبلاش تسافر».

ويلتفت الى القوم فاذا بهم غرقى باحلام «حضارية» فهم يتباهون على الدوام بمدن الاغريق القديمة، ويتناسون انهم قطعوا شجرة الحضارة من اصولها.. وزرعوها على ارض اخرى!!.

يذكرهم بمرارة وتحد بتألقات بابل وسومر وأكد لكنهم سكارى بحضارتهم!!.

يتحدثون عن باريس وروما ولندن ولا يعرفون شيئا عن بغداد والقاهرة ودمشق.. لكن صاحبنا اصر على تذكير القوم وقال ان باريس كانت قرية منسية يوم كانت بغداد منارة للعلم والحضارة وذكرهم ان الخليفة العراقي هارون الرشيد قد اهدى شارلمان ساعة كبيرة، حطت عند الاخير دون ان يعرف عنها شيئا!

عفوا لا أريد ان أجعل من التاريخ سياحة في الزمان.. لكن اليس التاريخ هو الذي يضعنا كل لحظة في صراع مع أنفسنا ومع الآخرين..؟

شـرق وغـرب

قبل ان اشد الرحال الى اوروبا . . كان الاصدقاء من الذين زاروا هذا العالم البعيد يشعرونني باني ذاهب الى النعيم . . والى حياة ما بعدها حياة!؟

وكانوا يقصون من الاساطير والحكايات المدهشة . . والقصص المثيرة ما يسيل لها لعاب المسافر! واغلب الظن ان هؤلاء الاصدقاء لم يتعرفوا على اوروبا جيدا لان السفرات الصغيرة ربما تدهش العقل ولكنها لا تضعنا امام الحقيقة .

كثيرون هم الذين يتذمرون من الحياة في اوطانهم ويحاولون الخروج من هذا الاغتراب النفسي ويعدون العدة للسفر الى المهجر لكنهم يتناسون ان السفر الحقيقي يبدا في الداخل ومن الداخل .

هذه هي اوروبا الغربية وها انا ضيف أجمل مدينة غربية . . تلكم هي باريس مدينة الجمال والنساء، مدينة التاريخ والحضارة . . مدينة نابليون وديغول . . مدينة فولتير واراغون ومالرو .

صاحبنا يعرف باريس قبل هذا التاريخ لكنه وما أن حطت قدماه على هذه الارض الباريسية حتى ازداد تعلقا بتاريخه . . وازداد تعلقا بوطنه . . وكلما شاهد شيئا جميلا تمناه في بلاده .

وتمضي الايام وتدور السنوات فاذا بالغربة تشتد اكثر فاكثر واذا بالحنين يجرف هذه الحياة .

ولكن السؤال الكبير يؤرق صاحبنا كثيرا . . عن سر التمجيد لهـذا

الغرب . . هل ان سببه عقدة النقص الحضاري التي تحيط بنا؟؟

هل لاننا فقدنا كل شيء جميل حسن ورحنا نبحث عنه عند الاخرين؟ ربما لكن المشكلة الحقيقية ان اوروبا سبقتنا بتقديم نفسها وزارتنا في عقر دارنا قبل ان نزورها في مكانها . . زارتنا من خلال الافلام والمجلات . . والسياح الذين يحلون بين ظهرانينا .

والمغترب في اوروبا لا ينظر الى الامور بهذه السذاجة . . المغترب ينظر الى الحياة بعيون كبيرة . . يحلل ويناقش ويتأمل ويتوسل التاريخ والجغرافية وعلوم الاجتماع. القوم هنا ورغم اننا نعرف عنهم الشيء الكثير . . فهم لا يعرفون عنا شيئا فما زالوا يعتقدون برواية الجمل والصحراء . . والرجل الذي يتزوج في يوم واحد العديد من النساء؟ وعلتهم انهم اكتفوا بما حولهم، وبما منحتهم الحضارة من اشباع للحاجات . . ولم يتذكروا من بلادنا سوى قصص الف ليلة وليلة ومغامرات علي بابا وسحر علاء الدين؟ .

او ربما يتذكروننا كبلاد جميلة للسياحة والمتعة وشراء بعض الهدايا الشرقية!!، اما ما عدا هذا فان الاهتمام حاصل في امور السياسة والاقتصاد وقليل من التاريخ الحضاري عند الذين يعملون في مؤسسات سياسية واعلامية وتجارية، هم بحق عرفوا الحضارة وتحضروا لكنهم ابتعدوا كثيرا عن الثقافة واصبحت حياتهم اليومية مفتقرة الى الزاد الثقافي الكبير. والحضارة التي يتباهون بها لم تكن نصيب الجميع، انها حضارة المدن الكبيرة.

والعجب الكبير يقفز الى الذهن عندما يذهب المرء الى مناطق نائية من اوروبا ففي اقصى الجنوب الفرنسي ما زال الناس يستعملون الظل لمعرفة الوقت وهناك في جنوب ايطاليا ما زال الناس يتعاملون بوسائل بدائية جدا في حياتهم اليومية!!. ربما نستغرب هذه الأمور لكن الذي يزور هذه المناطق سوف يرى حتى الاوروبيين انفسهم لم يتمتعوا بحضارتهم المادية.

ويتساءل المغترب بمرارة عن مصير الانسان بهذه القارة، التي استيقظت اليوم على امور تهز ضميرها. اليابان وهي بلد اسيوي تتحدى وبكل جدارة

صناعات الغرب. والوطن العربي ورغم كل الاحداث السياسية فانه ينهض من جديد لكي يأخذ طريقه في هذه الحياة ولنا في العراق اسوة حسنة.

فالينابيع الانسانية تبدأ بعطاء جميل.. والغرب يحتضر من جديد والحياة هي الحياة.

ويتساءل المغترب لِمَ يرفض الغرب مبدأ الحوار الحضاري وهو بحاجة اليه؟ لماذا يستمر في جحوده وانكاره؟ لماذا لم يبدل الغرب نظرته الينا والى الحياة؟

فالحوار الحضاري اذا لم يبدأ في هذه المرحلة التاريخية، فان الغرب هو الذي سيتحمل خسارة تاريخية وحضارية. ولحسن حظ هذا الغرب المتعنت فأن الشرق يمد يده إليه رغم كل الذكريات المرة ورغم كل عهود النهب والاستلاب.

الاوروبيون يعيشون عقدة «المتفوق».. ولكنها عقدة زائلة ليس بفعل النهضة العلمية والالحاح على تحقيق هذه النهضة في العالم الثالث وانما كذلك بفعل الازمات الاقتصادية والسقوط الاجتماعي الذي يعاني منه الغرب، وبفعل القراءات الجديدة للتاريخ الذي يضع الغرب في مازق حقيقي.

الحياة لن تتوقف والناس تراهم بعجلة من امرهم.. الكل يهرول في هذه الحياة والانسان في الغرب يتحرك بحرية.. ويأكل بحرية ويسافر بحرية.. ويقول ما يشاء ولكنه لا يستطيع الخروج من الدائرة التي رسمها له المجتمع الرأسمالي.

ودائرة الحياة في هذا المجتمع تراها كبيرة جدا لكنك سرعان ما تكتشف انها اصغر من حبات الرمل!

بواتيـه

لا ادري كيف يمكنني الكتابة عن صور وحالات متنـاقضة؟ لا ادري كيف ابدأ الحديث عن مدينة يمكن ان تكون اجمل مدينة في العالم، ويمكن في ذات الوقت ان توصف بانها مدينة الفوضى والجنون مدينة الاضطهاد النفساني المستمر.

هل ترى ذلك الشاب البائس المسكين، نعم ذلك الشاب الذي اضل طريقه، انه يبحث عن بقايا «سندوتش» في اكياس القمامة . . هل تصدق ان امرا كذلك يحدث في مدينة الحضارة والانسان؟ ترى كيف يمكن لمغترب مثلي يمشي باربع عيون ويأكل بأربع عيون تجاوز حالات تهز النفس تماماً كما يهز البركان ارض الله الواسعة.

اغلب الظن ان فلاسفة الاغريق الـذين تفننوا في الحـديث عن معالم المدينة الفاضلة لم تخطر على بالهم مدن هذا الزمان!؟

وربما يكون الرسام السوريالي سلفادور دالي اجدر منا جميعا برسم لوحة متكاملة عن الحياة في باريس ويكفي له رسم كلب جميل يسير امـام حسناء باريسية . . ثم يرسم خلف الحسناء عاملا مهـاجرا ظـل منهمكا في تنـظيف الشارع من فضلات الكلب الملعون . . هذه اللوحة ربما تقربنا اكثر فاكثر من طبيعة الحياة في المدن العصرية!.

غير ان باريس كثيرا ما تتعدى هذه الحدود الضيقة، وكثيرا ما ترفض هذا الاذلال الانساني ولعل المظاهر الجديدة تدلنا على ذلك.

إن حالات الرفض كثيرة تتجلى في حركات الجيل الجديد الذي ارغم ومنذ زمن طويل على قبول تاريخ مليء بالتناقضات . . . وجغرافية هشة لم تستقر بعد على هياكل المدافع الساخنة؟ مدافع الحروب العالمية. هذا الجيل الجديد في اوروبا يعيش ازمة ثقة خطيرة أزمة نفسية تتعلق بالتاريخ المشبع بالحروب الاهلية. والمطاحنات السياسية والدينية، وازمة اخرى يفرضها الحاضر عليه ترى اين هو من المستقبل الغامض الذي لا يوفر له الاستقرار في النفس؟

اين هو ذلك المستقبل الذي يراه شاحباً وسط دخان الصواريخ والاسلحة المدمرة؟

ومنذ ان اصبحت السياحة جزءاً من معالم الحياة العامة في الغرب اخذ الأنسان الاوروبي يطرح الاسئلة الكثيرة لان ما تراه عينه في المغرب ومصر ولبنان والعراق لا ينسجم مع اطنان الكتب التي تتحدث عن هذا «العربي الكسول اللامنتج»؟ هذا العربي الذي هزم في معركة بواتية في القرن الثامن الميلادي. واراني هنا مضطرا للتحدث عن معركة لم تحدث اصلا والتي تعلم تلاميذ المدارس الفرنسية تاريخ ومستقبل العرب من خلالها نعم فهم لا يعرفون من التاريخ العربي الا هذه المعركة التي هزم بها العرب امام جيوش شارل مارتال عام ٧٣٢ هكذا يحدثنا قاموس لاروس؟

وحقيقة هذه المعركة هي انسحاب الجيوش العربية الزاحفة من مناطق الجنوب الفرنسي، في حين حصلت في مؤخرة الجيوش اشتباكات خفيفة. وقد لخص احد المفكرين الفرنسيين هذه الحادثة ولنسمعه كيف يقول: ان الفرنسيين للاسف الشديد فضلوا البربرية على الحضارة العربية، وصدوا العرب في هذه المعركة التي لم نربحها اصلا هذا هو قول «اناتول فرانس» واحد من هؤلاء القوم الذي اصر على قول الحق واظهار الحقيقة.

والفيلسوف الفرنسي المعاصر روجيه غارودي من الذين يتبنون هذه الاراء ومن الذين يكشفون فضائح الاستعمار الفرنسي في الجزائر وافريقيا على

السـواء. ويرى ان الحـل لكل هـذه الاشكالات يكمن في حـوار حضاري انساني.

وهذا الرجل له من الحجة الدامغة ما يفند مزاعم العنصريين الـذين يرون في سياسة التجويع والاستلاب الثقافي والاعتداء على كرامة الشعوب لذ ما بعدها لذة!

ولكن بـاريس اكبر من ان تستسلم لهلوسـة المجـانـين والعنصريـين والصهاينة، باريس اليوم تعج بالمظاهرات التي تؤيـد القضية الفلسـطينية، وقضايانا القومية المشروعة.. باريس مدينة الثورة الفرنسية وعصور التنـوير وفلسفات وطروحات فولتير ومونتسكيو وجان جاك روسو وباريس هي كذلك مسرح كبير لابداعات بودلير وتألقات راسين وروائع فيكتور هيغو. وباريس ثورة الانطباعية التي فجرها سيزان ورينوار ومونية في صالات الملوك والنبلاء. وباريس ايضا تعيش بقايا الدادائية والسوريالية والتكعيبية والوحشية، انها ما زالت تحن الى عبقرية بيكاسو وصراحة الشعر عن اراغون.

تلكم هي باريس التي يطيب لي اليوم الحديث عنها.. باريس المدينة التي يعيشها اكثر من عشرة ملايين انسان، والتي اصبحت معرضا كبيرا لأنواع البشر.. ترى فيها الذين قدموا اليها من كل فج عميق.. الصيني والعربي والباكستاني والفيتنامي والهندي والافريقي والاميركي والالماني وكل من هب ودب!

بـاريس في مسارحهـا وصالات السينـما، في الحدائق والمتنـزهـات في مناطقها السياحية التي اجتذبت ملايين السياح.. في برج ايفل وحي الرسامين في مونمارتر وفي الحي اللاتيني وحديقة اللوكسمبورغ، في شارع الشانزليزيه الكبير وفي غياهب غابات البولون ثم والأهم غياهب العرب في فرنسا؟

اعرف ان الحديث سيكون طويلا طويلا ولذا فقد شعرت بفائدة الكتابة عن حياة نحبهاو نرفضها بآنٍ واحد.. حياة مليئة بالالآم لكنها مليئـة ايضا بالتجارب الانسانية النبيلة.

عربي في باريس

وليس العربي وحده الذي تدهشه باريس في حياتها وضوضائها واضوائها ونصبها وتقاليدها ايضا .

فالفرنسيون القادمون من الجنوب والاوروبيون وسواهم يعيشون ايضا لحظات الدهشة ويحتاجون وقتا طويلا للتعود على الحياة الباريسية . . والمترو . . ومزاج الباريسيين الصعب؟ .

ويتذكر صاحبنا لحظاته الباريسية الاولى يوم هبط مطار اورلي وهو لا يعرف من لغة القوم كلمة واحده! .

وتشجع وخاطب القوم بلغة جيرانهم . . غير انه وجدهم لا يحبذون الحديث بلغة الاخرين لانهم وكما يبدو يعتقدون ان لغتهم اصبحت عالمية وعلى الناس تعلمها والتحدث بها؟؟ .

وفي الاشهر الاولى تعلم بعض الكلمات . . ولجأ الى الدروس التي يمكن من خلالها الحديث معهم في الدوائر والمحلات التجارية .

وأول تجربة له كانت شاقة وعسيرة لان هذه اللغة . . لغة صعبة لا يدري من اين تخرج حروفها، من الفم؟؟ ام حافة اللسان؟؟ ام من المنخارين؟؟ . ولغتهم ايها العزيز لغة الحب والشعر والجمال . . وعليك ان تلفظها بموسيقية خاصة!

وأول المصائب التي واجهت صاحبنا ذهابه الى مكتب اقامة الاجانب

لتنظيم حاله والتصديق على شهادة سلوكه واقامته. . وسألته السيدة من اين انت؟ فاجابها بهدوء انه من العراق وولد وترعع في بغداد. . ضحكت السيدة قائلة آه بغداد، علي بابا ما زال هناك؟. وفرح صاحبنا كثيرا لانه وجد في القوم من يمزح معه. . ويشعر بوجوده وتاريخه، لكن السيدة سألته سؤلا آخر لم يفهمه. . هل انت متزوج «ماريه، ماريه» لم يفهم هذه الكلمة واخرج قاموسه وحاول العثور على معناها ولكن السيدة قاطعته بلغة «الاشارة» ووضعت يدها على خاتم في اصبعها فهم فجأة وضحك وجاوبها، بسرعة بالعربية لا لا!؟ وحارت السيدة في امره لان كلمة لا العربية تعني في الفرنسية هنا وتصورت انه قد تزوج في فرنسا. . انتبه صاحبنا وصرخ نو نو والله نو!.

ولم تنته «المسرحية» بعد فالسيدة تريد معلومات اضافية تتعلق به وبعائلته وبسبب مجيئه الى فرنسا؟؟ والدوافع لكل ذلك؟ ولم يفلح بالاجابة وعثر على عربي كان ينتظر دوره. . وساعده على اداء هذه المهمة الشاقة. وخرج يعيش حالة من الالم والتعاسة. . في هذه الاثناء تقترب منه فتاة لتسأله عن عنوان شارع في باريس يصرخ في وجهها «لا افهم الفرنسية» باللغة العربية ايضا! تضحك طويلا وتبين انها من نساء المغرب العربي.

ومن الذكريات التي لا ينساها. . تلك التي رافقت ايام الدراسة في معاهد اللغة حيث اللقاء اليومي مع كل الجنسيات العالمية. وصفوف تعلم اللغة في باريس تشبه بحد ما قاعات الامم المتحدة؟.

من المكسيك والبرازيل. . الى العراق ومصر. ومن ايطاليا واسبانيا الى بولونيا ومن امريكا الى اليابان والصين وهكذا.

حشد هائل من البشر والقاسم المشترك بينهم دراسة اللغة الفرنسية. . وهمومهم المشتركة هي انزعاجهم من الحياة الجديدة التي تسبب لهم الكثير من المتاعب والحيرة.

وذات مرة اقترح صاحبنا على مجموعة منهم السفر الى ضواحي باريس والى منطقة فرساي التاريخية وان يحمل كل واحد منهم طعامه معه على ان يكون

من الاكلات الوطنية واشهرها، ويتذكر انه كان صاحب الفكرة وكان يريد من خلالها ان يعرف الاجانب على اكلات بلاده. ولهذا فقد كلف احدى النساء العراقيات بعمل «الشيخ محشي» وكذلك «الكليجة» التي جاءت بها من بغداد وكان يود عمل «المسكوف» ولكن من اين ياتي بالسمك الشبوط واجواء شارع «ابو نواس»؟؟.

والعرب في المهجر اكثر الناس كرما. وهم عندما يتعرفون على احد في الغربة يعطونه كل شيء ويمنحونه حبهم ووفاءهم.

وفي مثل هذه الاجواء تشتد حالات المرح وحالات الغناء لطرد مظاهر التعب والاغتراب.. وهمس صاحبنا في اذن صديقه الاسباني طالبا منه ترديد اغنية اسبانية وغنى الاسباني وتبعه المكسيكي ثم الايطالي والنرويجية والدانمركية والاميركي والبولوني والالماني اما صاحبنا فقد انشد لهم اغنيات الوطن العربي كلها من ناظم الغزالي «فوق النخل فوق» الى عبد الحليم حافظ «حبك نار»!.

وبين الطلبة العرب كثيرا ما تتم اللقاءات والنشاطات الفكرية والطلابية وقد تعلم الطلبة العرب الاعتماد على انفسهم خلال سنوات الغربة.. ومنهم من اصبح طباخا ماهرا وراح يدعو اصدقاءه الى تناول وجبات طعام فاخرة تضاهي تلك التي تقدمها المطاعم العربية في باريس.

والعراقيون ما زالوا يحافظون على اكلاتهم الخاصة مثل «التمن والبامية» و«التبسي» و«الشيخ محشي» وطبعا «اليابسة على التمن» وعندما يسمع احدهم بان فلانا قد وصلته من بغداد كمية من «البامية او الكليجة او شيشة عمبة» فان الطلبات تصل ذروتها!. وهم لم يتعودوا كثيرا على المطبخ الفرنسي الذي يعتمد اصلا على لحم الخنزير.. والغريب ان معظم العرب في الغربة تعودوا على اشياء الا لحم الخنزير؟ ولم يتعرف بعد على هذا السر العجيب!.

وشاهد صاحبنا ان الفرنسيين يقضون وقتا طويلا وهم يمارسون لذة الاكل حول المائدة ربما تصل الى ثلاث ساعات؟
والمائدة الفرنسية لا تخلو من الجبنة الفرنسية! ويقال ان الرئيس الفرنسي

الراحل ديغول قد شبه طباع الفرنسيين واختلافهم بتعدد انواع الجبنة التي يصنعونها والتي وصلت الى اكثر من ثلثمئة نوع!.

وحتى السياح العرب الذين يقضون اياما معدودات يهربون من المطاعم الاجنبية ربما بسبب عامل اللغة او لاسباب اخرى لذا فتراهم في المطاعم اللبنانية المنتشرة في باريس مثل مطعم «الامير» و«بيروت» و«ليالينا» و«بعلبك» وعند رشيد وهو اقدمها.

ويعاب على السياح العرب انهم ياتون الى الاسواق والمطاعم وينسون ان السياحة هي مشاهدة الاثار وزيارة المتاحف والتعرف على ثقافة وعادات وتقاليد القوم.

وصاحبنا كثيرا ما رصد السياح العرب في الاسواق وفي محلات اللهو وفي المراقص وفي المطاعم ولكنه لم يشاهد الا القليل النادر في المتاحف وينظر في جانب اخر فيشاهد سائحة شابه أجنبية او سائحا شابا أجنبياً وقد حمل كل منهما حقيبة السفر على ظهره ومسك الخارطة في يده وهو يؤشر الى الاماكن إلتي زارها ويهتدي الى اماكن اخرى مثل متحف اللوفر وبرج ايفل ومقبرة العظماء وحي مونمارتر.

يكره صاحبنا ظاهرة السياح العرب في اوروبا.. لانها تحولت من سياحة المدن والتعرف الى تاريخها.. الى سياحة الاسواق والتعرف على اسعارها!!.

الأيـــام الأولى

ويتذكر صاحبنا ايامه الاولى في باريس . . وكيف خرج في صبـاحات اكتوبر باحثا عن وجه باريس .

ظل يعدو . . ويعدو . . في شوارع وساحات وازقة باريس . . سائلا عن برج ايفل . . وطوال نهار كامل عثر أخيرا على «ايفـل» العملاق . . ولكنـه اصيب بخيبة امل «صغيرة» لانه كان يعتقد ان برج ايفل اكبر بكثير مما رأته عيناه . . ربما لانه شاهده من على مرتفع «قصر شايو» ولهذا بدا له صغيرا . . لكنه هبط فيما بعد . . وصعد البرج على اقدامه . . ولمسه . . وتبارك فيه . . حتى اعاد الثقة الى نفسه !؟

ومنذ ذلك عقد صاحبنا صداقة خاصة مع السيـد «ايفل» . . وصـار يسكن قريبا منه . . وبالتحديد في شارع فيكتور هوغو في الدائرة السادسة عشر من باريس . . ولانه صار من اهل الحي . . كان يتردد باستمرار على ساحات وحدائق برج ايفل . . وكذلك ساحة «تروكاديرو» ويجلس في مقاهيها الجميلة المطلة على البرج . . ويراقب فتياتها الجميلات !؟ .

ومن محطات مترو «تروكاديرو» يشاهد يوميا منظرا طريفا . . من هذه المحطات إذ يهبط يوميا مئات السواح من المان وامريكيين ويابانيين وسواهم . . وكل واحد منهم يحمل خارطة باريس . . وكاميرة صغيرة ليسجل ذكرياته وأول صورة مع السيد ايفل . . ومع قصر شايو الذي شهد رقصة «هتلر» الشهيرة زمن الاحتلال .

وكثيرا ما رصد معالم الدهشة على وجوه السواح.. يتوقف السائح قليلا.. ثم ينظر اليه بتعجب واضح.. ثم يتقدم.. ويتأخر قليلا.. يخرج آلة التصوير.. صورة.. صورتان.. ها انا اخيرا امام هذا الاله الحديدي!؟ هذه الحالة تحدث يوميا الاف المرات.. ومع الاف السواح الذين يتأملون البرج الجميل.

وبرج ايفل تم بناؤه عام ١٨٨٧.. واستغرق البناء لمدة سنتين كاملتين.. ولم يعرف المهندس الحديدي السيد ايفل أن برجه سيجلب له هذه الشهرة الكبيرة.. ولم يدر في خلده ان البرج سيفوز باعلى نسبة من زيارة السواح.. ومن الصور التذكارية الجميلة.

وبرج ايفل.. كان المفروض ان يهدم عام ١٩١٠.. وكان برجا لمعرض كبير افتتح عام ١٨٨٩.. ويبدو ان الامواج الصوتية قد ابقت على حياته.. فمنذ عام ١٩٠٤ اصبح احد ابراج الاذاعة الفرنسية.. واستعمل لنقل الرسائل اللاسلكية في الحرب العالمية الاولى.

ورغم ان برج ايفل يبلغ ارتفاعه ٣٢٠ مترا.. فيمكنك ان تصل قمته عن طريق المصاعد الكهربائية او عن طريق السلالم التي نصبت في اطرافه.

وفي قمة البرج يجد صاحبنا متحفا يمثل الرسوم والخرائط التي استعملها ايفل لبناء برجه.. وفي الطابق الاول والثاني يجد المطاعم والمقاهي.

ويشاع من وقت لاخر ان برج ايفل يعاني من ازمة في «صحته».. وفي عام ١٩٨٢ اجريت له عمليات «جراحية» واقتصت منه كمية كبيرة من الحديد.. وهكذا تم تخفيض وزنه.. واعيد الشباب اليه من جديد.. وحتى «النافورات» الكبيرة اعيد تشغيلها بجو رومانسي حالم.

ويتذكر صاحبنا جيدا انه صعد برج ايفل لاول مرة مع سائحة امريكية ضلت طريقها فاهتدت اليه ولأنه يعرف اسرار باريس جيدا فقد اعجبت به وارتاحت له.. لكنها وجدت فيه اشياء لا ترتاح لها.. انه مغرور بتاريخه وماضيه.. ومصرٌ على الحديث عن فلسطين والمؤامرة العالمية لسلب هذا القطر

العربي.. وكان كذلك شديد الحنين الى وطنه العربي الكبير.. وكانت تقول له.. ان جسدك في باريس.. وقلبك في بغداد.

واكتشف صاحبنا ان الاميركان لا يحبون التاريخ.. ولا يتحدثون به كثيرا ربما لانهم لا ينتمون الى التاريخ القديم.. فهم سلالة التاريخ الذي بدا منذ ما يقارب القرنين من الزمان.

وفي ساحات وحدائق برج ايفل يشاهد صاحبنا مشهدا يختلط فيه الحزن بالطرافة.. انهم «الزنوج» الذين يبيعون بعض الهدايا التذكارية.. وكل واحد من هؤلاء افترش الارض وعرض بضاعته.. عين على الزبائن.. واخرى تراقب مجيء الشرطة التي تطاردهم باستمرار وتحجزهم في دوائرها ثم سرعان ما يعودون لمزاولة عملهم في اليوم التالي.

.. واغرب ما فيهم طريقة الحاحهم لبيع حاجاتهم الى السواح.. وترى الواحد منهم يلاحق السائحة ويلح عليها لكي تشتري المصنوعات الافريقية وهي حيوانات صغيرة من الخشب.. او معصم نحاسي.. او قلادة فضية.

وسياحة باريس لا تتوقف على برج ايفل.. وهناك متحف اللوفر الشهير.. وكنيسة نوتردام.. والاوبرا وحدائق اللوكسمبورغ.. ومقبرة العظماء في الحي اللاتيني.. ثم معارض القصر الكبير في الشانزليزيه ومقبرة نابليون في الانفاليد.. ثم جسور باريس التي بلغت عشرين جسرا اجملها جسر الاسكندر.. واقدمها الجسر الجديد الذي يقع امام المحلات التجارية «لاسمارتان».

وصاحبنا لانه احب باريس كثيرا راح يبحث عن تاريخها.. ويسجل ملاحظاته هنا وهناك. وقيل له ان باريس بدات اول ما بدات في منطقة «سيته» وهي جزيرة صغيرة بدا الباريسيون فيها حياتهم الاولى.. على تربية الابقار.. وعلى مرور السفن الاتية من وراء البحار.

واليوم تضم هذه الجزيرة التي احتضنها نهر السين اهم البنايات الفرنسية.. قصر العدالة.. وكنيسة نوتردام.. ودوائر الشرطة الباريسية التي

تنظم اقامة الاجانب.

وكنيسة نوتردام بدا بناؤ ها عام ١١٦٣ تمت عام ١٢٤٥.. اي ان بناءها استمر ٨٢ عاما. وتعتبر كنيسة «نوتردام» من اجمل واشهر كنائس اوروبا.. وقد كتب عنها اديب فرنسا العظيم فكتور هوغو اجمل روايته «احدب نوتردام».. كما انها وبعد تحرير باريس من الاحتلال النازي قد شهدت زيارات عديدة لكبار الشخصيات السياسية في فرنسا.

ولاحظ صاحبنا في كنيسة نوتردام جوا خاصا لم يعتده في الجوامع والمساجد التي كان يزورها في المدن العربية.. في هذه الكنيسة شاهد الرجال والنساء معاً يؤدون الصلاة.. وسمع الموسيقى.. واكثر من هذا وذاك.. تحولت الكنيسة الى مكان سياحي كبير شاهد فيه السائحات اللواتي يأتين بملابس ليس فيها شيئا من «الحشمة»!.

ويترك صاحبنا كنيسة نوتردام.. ويذهب متجولا في حدائق اللوكسمبورغ الجميلة التي يطل عليها قصر لوكسمبورغ.. واول ما دخل هذه الحديقة كان يظنها مدخلا لجامعة باريسيه.. لانه شاهد مجموعة كبيرة من الطلاب يدخلون اليها.. في هذه الحديقة لاحظ انها نظمت بشكل رائع وجميل.. الورود في مختلف الالوان.. والاشجار قصت بنسق جميل.. لكنه شاهد مجموعة من النخيل وضعت في صناديق ترابية.. وتساءل هل ان النخلة تحتاج الى ارض خاصة؟؟.

.. ومن المشاهد التي شغلت صاحبنا مواعيد الشباب والشابات في هذه الحديقة.. وتبادل القبل الحارة.. والعناق الطويل الذي يتم على مرأى الماره!.. ترى ما الذي يمكن فعله في البيت.. اذا كان الشارع والمقهى والحديقة مباحا بهذا الشكل.. لكن صاحبنا ومع تداول الايام لم ينتبه الى هذه الظاهرة اليومية.. وصار فيما بعد يقلد القوم على طريقتهم الخاصة!!

شيّد قصر «لوكسمبورغ» عام ١٦١٥ ـ ١٦٢٠ للسيدة ماري «دومد سيس» وهو اليوم مقرٌ لمجلس الشيوخ اما الحديقة الجميلة فقد شيدت عام

١٨٧٩ واصبحت حديقة عامة للناس .

ويترك الحديقة متجها الى الحي اللاتيني . . وساحة «بانتيون» التي تقع فيها مقبرة «العظماء» مثل روبسبير وفولتير وجان جاك روسو وجون جيرس وجان مولان وفكتور هوغو وغيرهم .

. . ويترك المقبرة مارا بجامعات السوربون وهي سبع جامعات تحتل الاولى والثالثة البناية الرئيسية بين شارع سانت ميشيل وشارع سان جاك .

ويقترب صاحبنا من نهر السين ويشاهد الجسور الجميلة . . وقيل له ان «الجسر الجديد» هو اقدم الجسور وقد شيد عام ١٥٧٨ وحتى عام ١٦٠٦ .

وعلى هذا الجسر بدأ بودلير تقديم فعالياته المسرحية . . وعلى هذا الجسر بدأت تجارة الجنس . . وكانت الشرطة الفرنسية تقتاد المتعاطين بالجنس الى معسكرات لاداء الخدمة العسكرية وخوض الحروب .

ويذهب صاحبنا الى متحف اللوفر الكبير . . وعندما دخله شعر بالتعب لانه متحف كبير يحتاج الى ايام وايام عديدة للتعرف على كنوزه الفنية والعلمية والثقافية .

«في عام ١٢٠٤ يفكر فيليب اوفست ببناء قصر كبير وجميل وينفذ ما كان يحلم به . وبعد هذا التاريخ يبدأ هذا القصر الذي تظافرت فيه الجهود المعمارية الرائعة بالنمو فتبنى معه سلسلة من القصور المتشابهة على يد شارل الخامس وفرانسوا الاول وهنري الثامن ولويس الثامن ولويس الرابع عشر حتى تم البناء على يد نابليون الثالث . وفي عام ١٧٩١ يعلن رسميا افتتاح متحف اللوفر الذي نراه اليوم . . » .

واهم اللوحات التي جذبت صاحبنا تلك اللوحات التي انجزها فنان فرنسا العظيم دافيد وكذلك ديلاكروا . في لوحات دافيد يمكن ان ترى نبض القلب والعصب . . انها فاقت آلة التصوير . . لوحات ترى الاشخاص فيها وكأنهم يتحدثون فيما بينهم خصوصا تلك اللوحات التي جسدت المعارك التي خاضها نابليون . اما ديلاكروا . . ففي لوحته الشهيرة «الحرية تقود الشعوب»

تكاد تسمع من خلالها اصوات الطلقات. . وهياج المتظاهرين. . وصوت المرأة في المعركة.

واستغرب صاحبنا بان «تحاط الموناليزا» بدعاية كبيرة. . وهي لوحة صغيرة ليست لها قيمة فنية كبيرة. . لا في سر أبتسامة الموناليزا. . ولا في دافنشي الايطالي الذي رسمها.

. . ولكن وكما يبدو فان الحديث والدعاية عن «الموناليزا» من اسباب شهرة هذه اللوحة دون غيرها.

واللوفر لا يمكن رؤ يته في يوم واحد. . ويتذكر صاحبنا انه كان يذهب كل يوم احد «مجانا» الى متحف اللوفر لكي يتمتع بهدوء بمعالمه التاريخية والفنية.

ويخرج صاخبنا من قصور اللوفر مارا بحدائق «تويلري» الجميلة. . وتويلري هذه شهدت المظاهرات الشعبية الضخمة التي طالبت برأس لويس السادس عشر وزوجته. . وكان «لافاييت» يقود هذه المظاهرة الحماسية. . وكان الذين قدموا من مرسيليا ينشدون نشيد «المارسييز».

ولكن حديقة «تويلري» التي تتمتع بطرق سرية وسراديب تتصل بنهر السين. . هذه الحديقة صارت اليوم مرتعا للسواح وايضا «للشاذين» من الفرنسيين وسواهم.

وبعد حديقة تويلري يتوقف صاحبنا عند ساحة الكونكورد التي تعتبر اكبر ساحة في العالم. . هذه الساحة انتصبت فيها مسلة مصرية خالدة. . قيل انها اهديت لفرنسا من قبل سلالة محمد علي الكبير. . وقيل ايضا ان نابليون هو الذي سرقها اثناء حملته على مصر.

وساحة الكونكورد هذه خططت على يد امهر المهندسين والنحاتين الفرنسيين ايام حكم لويس الخامس عشر عام ١٨٣٦.

ويترك صاحبنا ساحة الكونكورد ليدخل شارع الشانزليزيه الشهير. .

وهو اكبر واهم شارع تجاري في العالم.

ومن ساحة الكونكورد يبدو الشارع في حالة من الارتفاع.. ويبدو «قوس النصر» في ساحة النجمة «الاتوال» معلقا في الهواء الطلق.. وفي الليل تضيف الاضواء لمحات جمالية على هذا الشارع المشهور بمحلاته التجارية الكبيرة.

وقبل الدخول في الشانزليزيه من جهة الكونكورد يقع على اليمين قصر الاليزيه وهو قصر الرئاسة الفرنسية وعلى الشمال القصر الكبير والقصر الصغير.. وهما قصران تُعرض فيهما معارض الفن والنحت والاثار. وعلى وجهة القصرين يشاهد جسر الاسكندر الذي يصل بقصر الانفاليد الكبير.. وهذا القصر شيد عام ١٦٧٠ على يد لويس الرابع عشر.. وقد خصصه كقسم داخلي للعسكريين ومنذ عام ١٨٤٠ اصبح متحفا حربيا ومقبرة رهيبة لنابليون.

ويتذكر صاحبنا انه زار مرات عديدة المتحف الحربي واطلع على حروب نابليون وغزواته والاسلحة التي استعملها.. وكذلك الجواد العربي الذي كان يركبه وهو هدية من احد السلاطنة العثمانيين.. .هذا الجواد الاصيل مازال محنطا في متحف الانفاليد.. تراه.. وكانه يريد ان يحدثك عن غزوات نابليون ومغامراته. والعربي يفرح عندما يرى هذا الحصان العربي موضوعا بشكل محترم وانيق. إن مقبرة نابليون صممت بشكل يجبر الزائر ان يقدم انحناءه بسيطة قبل الهبوط الى القبر!؟.. ورغم ان نابليون من جزيرة كورس التي تطالب باستقلالها.. فان الفرنسيين يعتبرونه من اهم الشخصيات الفرنسية في تاريخ فرنسا الحديث.

وترى قصور فرساي وقصور «فونتاين بلو» ما زالت تحتفظ بالكثير من الاثار التي خلفها نابليون بونابرت. وفي الطريق الى الشانزليزيه تفاجأ بالحركة الرهيبة.. حركة الناس والسيارات.. وجمال المحلات التجارية التي عرضت سلعها بشكل جميل واخاذ.

والشانزليزيه قد شهد مؤخرا افتتاح محلات تجارية جديدة تلك التي شيدت محل بناية صحيفة «لوفيغارو» القديمة. . مثل غاليري «٢٦». وقد ابتكر الفرنسيون اجمل الديكورات لتشييد هذه المحلات التجارية الجديدة. وتسارع معظم الشركات والمؤسسات للفوز بمكان في شارع الشانزليزيه. . ونرى مثلا محلات كبيرة لاشهر السيارات مثل «رونو» و«ستروين» و«مرسيدس» و«الفا روميو» و«فيات».

وكذلك مؤسسات الطيران. . ويفرح العربي عندما يشاهد الكثير من مكاتب الطيران العربية وقد احتلت مكانا يليق بها وبالقرب من اكبر الخطوط العالمية مثل الخطوط الانجليزية والفرنسية والاميريكية والروسية.

ويفرح صاحبنا وهو يشاهد مكتب الخطوط الجوية العراقية في نهاية شارع الشانزليزيه. . مكتب انيق وجميل صمم على وهج التراث العربي الاسلامي. . ولكن المكتب لا يحتوي على معروضات جيدة تمثل تاريخ العراق العظيم.

وفي الشانزليزيه تكثر المقاهي واشهرها «لا فوكيت» ثم «الألزاس». . «والكوليزه». . وجورج سانك وفيه ايضا المؤسسات الكبرى لصناعة الملابس مثل كريستيان ديور وبيار كردان وسانت لوران. . والشارع نفسه اصبح مكانا للتنافس. . وفيه ترى الباريسية وقد ارتدت اجمل ملابسها وهي بذلك تضاهي الامريكية والانجليزية والالمانية.

وفي الشانزليزيه يرى صاحبنا الفنانين والممثلين المعروفين مثل بلموندو والان ديلون وميشيل بيكولي وسيرج لامه وجان فيرا. . وكاترين دينوف وناتالي باي وميوميو وميري ماتيو. . وهؤلاء كثيرا ما اخفوا انفسهم وراء نظارات سوداء.

واجمل ما في الشانزليزيه هو التمتع بحركة الناس والاشياء؟؟ وكثيرا ما يجلس صاحبنا في مقهى «كويك أليزيه» يرصد الناس. . ويراقب الباريسية وكلبها!! والزنجي الذي يتأبط شقراء جميلة!! او العجوز التي صبغت وجهها

«بالمكياج» لكي تعود الى ايام زمان!.

ويقال ان البارون هوسمان هو الذي صمم باريس على هـذا الطراز الذي هي عليه. وقد ولد هوسمان عام ١٨٠٩.. ويقال انـه وظف شبابـه لتشييد هذه المدينة الخالدة عـلى الطراز الحـديث.. فراح يخـطط شوارعهـا العريضة.. وساحاتها الكبيرة.. وانفاقها الكبيرة.

تلكم هي باريس التي تعب صاحبنا من الحديث عنها.. باريس مدينة المدن.. اكبر من ان يستهلكها المرء بجولة او جولتين.. انها تحتاج الى العمر كله.. بدات الحياه فيها.. وربما ستنتهي فيها ايضا.

باريس يسأل عنها السويدي في استكهولهم.. ويفرح لها الامريكي في تكساس.. ويتأملها الايطالي في روما.. ويعشقها الالمـاني في برلـين.. اما العـرب فقد جعلوهـا مدينتهم الثـانية. في بـاريس.. وكلما شعر صـاحبنـا بالتعب.. يذهب الى نهر السين ويكتب كلماته التي أحبها.

الباريسية ... وليل باريس

وفي يوم هبوطه في مطار الغربة تذكر صاحبنا على الفور حكاية النساء وحكايات الجمال والزهور والموضة وحكاية الباريسية التي اشتهرت في مقارعة الرجال الذين يتصدون لها . . .

وتذكر كذلك مغامرات بريجيت باردو وعبثها ولهوها مع الرجال، وايضا حكايات كاترين دينوف التي اغوت الرجال بشعرها الاشقر، والاهم من ذلك تذكر ما قاله احد اصدقائه وقبل يوم من السفر الى باريس، قال هذا الذي لم يعرف الحياة بعد «وسوف تجدها في المطار تنتظرك بشعرها الاشقر وجسدها المنحوت و، و».

وعندما هبط صاحبنا المطار الكبير، وجد النساء يعملن في كل شيء ويُدِرْنَ كل شيء وفرح كثيرا لان فرحته سوف تكون اوسع مما تصور الاصدقاء خصوصا وان صاحبنا كان اسمر جذابا، . . . ونساء البلد يعشقن الاسمر وهكذا قالوا له قبل السفر بيوم واحد . . .

ومنذ ذلك التاريخ لم يستطع صاحبنا ان يعثر على حظه الا بصعوبة ولكنه وبعد ان تعلم لغة القوم وصار يتأبط النساء في شوارع الشانزليزيه وازقة الحي اللاتيني بدأ يفهم اكثر فأكثر تمرد الباريسيات على الحياة.

والباريسية مزاج خاص لا ترى لها في الدنيا مثيلا لكنها ورغم القلق الساكن فيها ليل نهار، ذكية ولبقة وشجاعة تعرف كيفية الظهور في مظهر جميل وجذاب . . عارفة بأسرار الرجال والسيطرة عليهم، كما ان جمال وتاريخ فرنسا

يساعدانها على ذلك، اما اللغة الفرنسية فتضيف مسحة من الجمال على التي تتكلمها بصوت واداء جميل.

وجمال الباريسية ليس في محاسن الوجه ومفاتن الجسد، انه جمال الروح، والخفة، وحيوية الحركة، ورشاقة الحديث.

وان شاهدت امرأة مسرعة، مشغولة تتأفأف كثيرا، وتستعمل (الماكياج) في المقاهي والشوارع، وفي الحدائق العامة، وحتى في السيارة وهي تقودها فقل انها باريسية.

ليست هناك مخلوقة في عجلة من امرها مثل الباريسية، مشغولة في حياتها وعلاقاتها، ومواعيدها، وان طلبت منها موعدا فسوف تخرج لك (دفترا صغيرا) وقد نقشت عليه مواعيد الشهر، وحظك حتما سيكون للشهر القادم!، ولا تنسى ان بداية الحديث مع الفرنسية سيكون صعبا ومستحيلا، وهي ترفض الحديث في الشارع، وحتى في المقهى!!.. تفضل الحديث في مناسبات عائلية، وحفلات الاستقبال، وفرص تراها طبيعية للحديث والنقاش.

خفيفة الظل، صعبة المعشر، معجبة بنفسها اكثر من اللازم، لها بيتها الخاص وسيارتها الخاصة.. وحياتها الخاصة لا تفكر في الزواج قبل ان تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها لا تحب العيش مع اهلها ومنذ بلوغها سن الرشد فهي تخرج من بيت ابيها راغبة مطمئنة على مستقبلها.

وفي ظروف الازمات الحالية فأن الباريسية وقعت فريسة القلق لذلك المستقبل الغامض.. وربما انها وكأي امرأة اخرى تبحث عن الاستقرار.. عن الاستقرار العائلي والزواج.. ولكنها تصطدم بحرية المجتمع الذي يسعى لتهديم العلاقات الانسانية.

ورغم ان الباريسية تعيش في مجتمع متقدم اجتماعيا ورغم ان لها من حرية الحركة ما يكفل سعادة حياتها ورغم انها صاحبة القرار وصاحبة الاختيار في امور العمل والزواج واشياء اخرى، اقول رغم كل هذا فأن الباريسية لا تحس بطعم السعادة التي تبحث عنها.

وصاحبنا تحدث كثيرا مع الباريسيات عن سر هذه الازمة النفسية التي تجتاح المرأة الغربية. ان المجتمعات الغربية اعطت للمرأة حرية كاملة لكي تبني نفسها، لكنها تركتها اسيرة الاهواء (والمطبات) الأجتماعية المهلكة.

وترى الباريسية ولكي تضمن لنفسها العيش الكريم.. تراها تركض ليل نهار من اجل توفير الحياة الملائمة في مجتمع استهلاكي لا يعرف من الحياة غير الاستهلاك.

فالباريسية تركض وراء العمل، تركض وراء تأمين البيت، تركض وراء تأمين السيارة، تركض وراء السفر، تركض وراء كل شيء.. الا السعادة!؟

وهنا يتساءل صاحبنا: هل يكفي ان نعطي للمرأة الحرية ونتركها فريسة لاهواء وتقلبات المجتمع.. هكذا هي الحياة اليوم في الغرب.. فالحرية تنقلب لتأكل الانسان من الداخل ومن الخارج.

وهناك مشكلة مهمة تعصف بحياة المرأة في الغرب وهي مشكلة الزواج، فرغم حرية الاتصالات والمواصلات وحرية الاختلاط فأن الزواج في الغرب يواجه ازمة ثقه حقيقية.. والمرأة بطبيعتها مياله الى الزواج والاطفال والاستقرار.. والرجل في الغرب يستغل حرية المرأة في جسدها فيطلب العيش معها بلا زواج، وبلا عقد!!

ان حالات الطلاق مرتفعة جدا، وتزيد كل يوم نسبة الطلاق في المجتمعات الغربية والاطفال هم الضحية وراء هذا التمزق الخطير للنسيج الاجتماعي في الغرب.

والباريسية ترى انها قد فقدت شيئا اساسيا في الحياة، ذلك هو الحنان، نعم الحنان الذي لم تجده لا في البيت.. ولا في الدائرة.. ولا في هذا المجتمع اللاانساني، الذي تزداد فيه العزلة الفردية، الحياة المادية في المجتمعات الرأسمالية تركت آثارا خطيرة [illegible] وتحولت في

فالقسوة الاجتماعية تركت ظلالها بسرعة وعمق على نفسية المرأة في الغرب ولا عجب من ان ترى المرأة تصرخ بصوت عال . . وتضرب . . وتنتقم . . كل هذا يحصل في مجتمع الغرائب .

والباريسية تحاول ان تعوض عن ذلك كله بالملابس ، فهي ترتدي من الملابس ما يحلو لها ، ولا يمر اسبوع الا وتشتري لها فستانا جميلا ، او قميصا ملونا ومن خلال الموضة والملابس تحاول ان تخلق لها عالما خاصا بها ، عالما بعيدا عن الحزن والشقاء والعبودية .

وحقا فان الفتاة في الغرب لا تعتبر حرية الجسد حرية . . ولا تعتبر حرية المكوث في حانات الليل حرية . . فالحرية الحقيقية وكما تراها اليوم هي ان تعيش سعيدة بلا قلق .

انها تتمنى السعادة فقط . . ولكن اين تجدها في فلسفة المجتمعات الرأسمالية القائمة على الاستهلاك .

وهكذا هي المرأة في الغرب تعيش كما تشاء وتسافر كما تحب . . وتتزوج من ترغب . . ولكن لو سألتها هل انت سعيدة . . ؟؟

لقالت لك وبسرعة . . لا .

ولقاء صاحبنا مع الباريسيات وسواهن لقاء عجيب . . مريب ، فهو يطرح الاسئلة على نفسه مرات ومرات بسبب هذه التجربة الجديدة .

وكان في بغداد لا يكلم النساء الا من وراء حجاب وكان يتحمل الاذى والمصاعب للفوز بحديث مع فتاة من الحي الذي يسكنه . . وحتى في الجامعة ورغم جرأته وخفّة دمه كان يدفع الثمن غاليا بسبب حديث بسيط مع شابه اعجبته .

وها هو اليوم في باريس . . مدينة النساء والحب والجمال . . ينزل الى الشوارع . . الى الساحات . . الى المقاهي . . وحتى حانات الليل . . يرى المرأة في كل مكان وحتى في ساعات متأخرة من الليل . . في شوارع الحي اللاتيني

يرى فتاة لم يتعدى عمرها سنين المراهقة . . او اقل من ذلك بقليل تتمشى لوحدها . . او مع صديقها . . تدخن السجائر . . وتدخل الحانات وحتى الصباح .

وكان صاحبنا يتساءل بسذاجة . . الم يمنعها والدها . او امها؟ . ثم هل ياترى ستجد شقيقها ينتظرها في عتبة الباب!؟

تساؤلات . . وتساؤلات كثيرة . . الى ان خالطهن وصار يعرف أسرارهن . . وتعلم الكثير . . حتى إنتهت مرحلة الاستغراب .

كان مشغولا بهذه التساؤلات وهذا التحول السريع والمهم في حياته اليومية ، ظل يتذكر تجربته الاولى في شارع سان ميشيل يوم غازل احدى الباريسيات وبكلمات فرنسية ركيكة . . «سافا» . . اجابته فيرونيك . . نعم «سافا» وبعد كلمات بسيطة في مقهى «سيلكت» في شارع سان ميشيل شعر ان الانسة فيرونيك تشتهيه بقدر الشهوة التي يضمرها لها!؟ وأكتشف فيما بعد إنها من طالبات اللذة!!

والغريب ان صاحبنا شأنه شأن كل العرب . . ورغم كل التجارب والمغامرات النسوية ظل يشعر بذلك الجوع الجنسي القديم . . فالعربي في اوروبا يعشق حتى النهاية . . وتلكم هي وصية زوربا الخالدة .

ومنذ ذلك اليوم وصاحبنا تستهويه المرأة الاوروبية . . وصار يمشط شوارع باريس ويتلفت كثيرا لأن الباريسية مثل «الشهب النازكة» كلما مرت جميلة . . تبعتها اخرى وثالثة . . حتى بدا يشعر بآلام في الرقبة من جراء التفاتاته وحركاته . . !؟

ورغم كل هذا ورغم أنه تعرف على فيرونيك وفرنسين وكاترين وسونيا وسوفي وماريز ونيكول ومارلين ظل يتذكر سعاد وسميرة وانعام وسهام ونسرين! .

لكنه وعندما بدا يتحدث مع الفرنسيات كان يشعر بلذة خاصة ربما لان

الفرنسية تنتمي الى حضارة معاصرة وربما لانه ومنذ نعومة اظفاره كان يسمع الكثير عن فرنسا وباريس «والعالم الجميل» وربما هو انتقام «اللقاء» الحضاري!!؟

لكنه ورغم هذا وذاك ظل ينظر الى المرأة الاوروبية.. كما ينظر الى طائرات الورق الملونة تلك الطائرات التي كان يتمتع بها بطفولته.. اما العيون فتذكره «بالدعابل» الملونة التي كان يستأنس بها في مرحلة طفولته، حيث كان يلعب ويلعب في ازقة الكرخ مع اطفال محلته.

تصورات عجيبة وهلوسة غريبة وذكريات يختلط فيها الدمع بالحنين.. لكن المرأة ظلت الوطن الذي ينشده في حياته.

هكذا ظل صاحبنا يصرخ طوال حياته.. المرأة هي الوطن.. وعندما يجد أمرأته يجد وطنه. انها الوطن بالمعنى الروحي الجميل.

ولكن صاحبنا رغم هذا كله ظل متألما وهو يرى المرأة الاوروبية وقد استغلت وبشكل شنيع من قبل مؤسسات الدعاية والاعلان.. ومن قبل اصحاب حانات الليل.. وسماسرة الجنس في القرن العشرين!. في الشوارع ترى الملصقات لنساء عاريات او شبه عاريات.. في الساحات ترى المرأة موضوعا لاعلان تجاري. والغريب ان للمرأة الجميلة مستقبلا يكاد يكون معروفا.. فهي اما عارضة ازياء.. او راقصة في حانات الليل.. او متجولة لغرض الدعاية والاعلان!.

ولو كانت المسألة متوقفة عند حد هذا الاستغلال الشنيع لكان خيرا لكن المرأة اخذت طريقها الى «علب الجنس الرخيص» في منطقة «بيغال» او «بارباس» او «سان دوني» تبدأ المرأة رحلة فظيعة.. رحلة تجارة الجنس الرخيص.. وباريس هذه الايام تعج بطالبات الهوى!! في الليل ترى كل الشوارع والمنعطفات والساحات وقد زرعت ببنات الحب!.

وفي المناطق التي ذكرها صاحبنا ترى «حوانيت الجنس» التي تباع فيها الافلام وكتب ومجلات وادوات الجنس.

اما غابة البولون هذه الغابة الجميلة في النهار «تتحول في الليل الى مرتفع خصب للممارسات الجنسية وعلى الطريقة الحيوانية» ويقال ان اكثر الـذين يعملون في هـذه الغابـة هم من «المتخنثين» الـذين لا يحملون مـواصفـات الرجل . . ولا مواصفات المرأة . . ويطلق عليهم اسم «ترافستي» .

ويستغرب صاحبنا عندما يكتشف ان «للباغيات» نقابات تدافع عنهن وقيل ان مدينة مرسيليا قد شهدت مظاهـرة للعاهـرات اللواتي احتللن اهم كنيسة في المدينة مطالبات بحقوقهن المشروعة !؟

اما موقف الدولة فهو رعايتهن وتقديم الخدمات الطبية لهن وتزويدهن بهويات خاصة للعمل ! . هذه امور ظلت تشغل صاحبنا كثيرا لكنه اكتشف ان القوم قد تعودوا على رؤ ية هذه الاحداث لكن هذا لا يعني ان العاهرة مقبولة اجتماعيا ابدا .

لقد تحدثت مرة احداهن . . وذكرت انها متزوجة ولها اطفال وزوجها قد وافق على عملها هذا وذكرت تقول ايضا ان جسدها ربما تمنحه للجميع لكن قلبها سيظل لزوجها !

وفي باريس ايضا شـاهد صـاحبنا منـاسبات اللهـو البريء . . كتلك العروض الجميلة التي يقدمها الليدو الشهير . . أو كريزي هورس . . او مسرح الطاحونة الحمراء في بيغال .

وعرف ان هذه المسارح الراقصة قد استقطبت مئات الفتيات الجميلات اللواتي يؤ دين حركات جسدية مثيرة . . ومنهن الكندية والهولندية والالمـانية والاميريكية . . ويقال ان الباريسية لا تحبذ العمل في هذه المسارح التي تعتمد على ضبط في المواعيد . . وعلى شروط عمل صعبة .

وفي هذه المسارح الراقصة يتمتع السائح وغيره بمشاهد رائعة تمتد حتى ساعة متأخرة من الليل . . هناك الالعـاب السحريـة . . والكروبـاتيكية . . وهناك رقصات فلكلورية . . والاهم من هذا وذاك تلك الرقصات الحية التي تقوم على اجساد النساء .

.. ورغم لهيب ليالي باريس الحمراء والخضراء والوردية.. الا ان صاحبنا ظل مشدودا الى اول ليلة امضاها في شوارع وساحات باريس.

لقد قصد صاحبنا مدينة الحب والنساء والليل في اواخر عام ١٩٧٣ وقد سمع من بعض العرب ان «ليلة عيد الميلاد» من اجمل ليالي باريس.. اذ ان الباريسية تعلن «هدنة» مؤقته وتتحدث مع الجميع وترقص مع الجميع.. في المقاهي والحانات.. وفوق السيارات.. ويمكن لاي انسان توديع قبلاته على خدها شرط ان يلفظ جملة «سنة سعيدة يا انستي الحلوة» «بون انيه»؟؟

وقد ابتهج صاحبنا لهذه المناسبة وتهيأ لها كثيرا وراح يبحث عن ملابس تصلح لهذه الأمسيه الفريدة.. لانه وكما عرف من زملائه العرب ان شارع «الشانزليزيه» الشهير سيشهد هذا الاحتفال الليلي المهيب.. حيث تطفأ الاضواء وتعلن باريس بداية سنة جديدة.

.. ورغم ان احتفالات رأس السنة تبدأ في ساعة متأخرة.. الا ان صاحبنا زرع نفسه في وقت مبكر في احدى مقاهي الشانزليزيه انها مقهى «جورج سانك» وراح يراقب حركة الناس والاشياء وينظر بدقة الى الحروف الفرنسية التي كتبت له من قبل احد الاصدقاء العرب «بون انيه مادموزيل».. عليه ان يلفظها جيدا ثم يودع قبلته على خد الفتاة.. هكذا قالوا له!؟.

وقيل له ان حرية (التقبيل) في هذا اليوم تمنح لكل من هب ودب. ولهذا شاهد الكثير من العمال العرب قدموا الى الشانزليزيه لكي يؤدوا طقوس الحب الباريسي وفي يوم خاص جدا.. ولكي يعوضوا عن مرارة عزلتهم؟.

ولكن صاحبنا ظل يتساءل.. كيف يمكن ان يقبل فتاة بهذه السهولة وامام زوجها؟؟.. او شقيقها؟.. او عشيقها؟؟ وهل ستنجح تجربته حقا وبهذه السهولة؟.

لم يفكر في تفاصيل هذه التجربة كثيرا.. وترك المقهى وسار في شارع الشانزليزيه الذي بدا وكأنه كتلة من الضؤ واللون والحركة.

لم يعانق عقرب الساعة منتصف الليل. . لكن الناس بدأوا يتحركون بكل الاتجاهات. . وبدأت السيارات تدق مزاميرها في وقت لم يتعود به على سماع هذه المزامير منذ ان ترك مدينة بغداد الخالدة. وحاول صاحبنا ان يهبط في احدى محطات المترو. . وراى ان الشانزليزيه الذي تحول الى سجادة مطرزه بالضوء والناس والاشياء ما هو الاوهما في عيون «الكلوشار» والمشردين الذين ظلوا قابعين في اروقة المترو التعيسة.

صعد مرة اخرى وقصد قوس النصر الذي بناه نابليون. . ظل يمشي ويردد في نفسه كلمات «سنة سعيدة يا انستي». . لحظات ويعانق عقرب الساعة منتصف الليل. . تذكر اهله واصدقاءه. . والعراق. . وبغداد. . وليالي دجلة. . وشارع ابو نواس. . تذكر بغداد في الليل. . وتمنى ان تتحول شوارع بغداد الى شارع بهي جميل مثل شارع الشانزليزيه.

. . ظل يمشي الهوينا. . يرصد حركة الناس والاشياء. . ثم انطفات الاضواء. . وصرخ مع نفسه سنة سعيدة يا انستي. . ثم نظر من بعيد ورأى الناس يقبلون بعضهم. . وفي هذه الاثناء تملكه شعور بالغربة والمرارة. . وتساؤ ل كبير:

وهل ياترى سيقبلون قبلة هذا العربي. . الذي ينعتونه يوميا بالارهابي. . والوسخ. . ظل صاحبنا يراوح مكانه. . بين الجرأة. . والخجل. . وتقدم الى فتاة حسناء كانت تبحث عن صديقها. . فبادرها. . «سنة سعيدة يا انستي». . وقبلها ومضى بسلام.

الزواج من فرنسواز

وعندما كان صاحبنا في بغداد.. كان يتساءل في سره عن سبب زواج العراقيين العائدين من الخارج بالاجنبيات...

وفي محلة العطيفية الأولى ما زال يتذكر ذلك الشاب الطبيب الذي كان يتباهى، وهو يصطحب زوجته الأجنبية مارا باسواق وشوارع المحلة.. وكان يعتقد انه يكسب احترام الآخرين من خلال هذه الزوجة «المتمدنة»، لكن صاحبنا كان يسمع من وقت لآخر أن الكثير من الزيجات الاجنبيات يهربن عائدات الى بلدانهن بسبب اختلاف تقاليد وعادات المجتمع الجديد عليهن.. ولم يسمع عن تجربة ناجحة الا في حالات نادرة.

يتذكر صاحبنا، وهو يجد نفسه وسط عشرات الفتيات الجميلات اللواتي يطمحن الزواج...، وكان يتساءل في سره هل يتنازل عن تقاليده وقيمه امام هذه التجربة الجديدة التي لا يعرف نهاياتها أم يقبل في أمر واقع يراه أمام عينيه.

ويعترف صاحبنا أن العلاقة بين الرجل والمرأة، ومهما اختلفت جنسياتهما هي علاقة انسانية حيّة.. علاقة روحية صادقة.. لكن المصيبة هي أن المجتمع بكل مظاهره العنصرية والفردية والعدوانية يقف ضد هذه العلاقة الصادقة.

وكلما نجح صاحبنا في علاقاته الجديدة، وكسب ود الفرنسيات وسواهن.. كلما ابتعد عن فكرة الزواج!؟

رغم هذا لا حظ صاحبنا أن العرب الذين قبلوا فكرة الزواج لا تبدو

عليهم علائم الراحة والرضا . . وأنهم ممزقون بين وطن الزوجية ووطنهم .

ومن المسرحيات التي شاهدها صاحبنا والتي لها علاقة في هذا الموضوع مسرحية فرنسية بعنوان «العرس» مثلت على احد مسارح حي «مونبرناس»، في باريس واشترك فيها الفنان العراقي سعدي يونس .

« . . . في مدينة تور الفرنسية تنشأ علاقة حب بين شاب عربي من المغرب يدرس في فرنسا وبين فتاة فرنسية تنتمي الى عائلة غنية جدا . الشاب العربي يرفض الزواج من الفتاة لانه يريد العودة الى وطنه للمشاركة في بنائه دون اية قيود خارجية .

ومع مرور الوقت يكتشف في احشاء الفتاة ثمرة من علاقتهما وهي لا تريد فقدان هذه الثمرة لذا يتفقون على زواجها من اخ الشاب العربي الذي ولد في فرنسا وتأثر بالثقافة الفرنسية رغم كونه من اصل عربي . في ليلة زواجهما يحدث العديد من المشاكل بين العائلة الارستقراطية الفرنسية وبين العائلة العربية (الشاب ـ الاخ ـ الاخت ـ الام) . والعائلة الفرنسية مكونة من (الام ـ الاب ـ أخوان وزوجة لاحدهما) . احد الاخوين الفرنسيين يرفض ان تتزوج اخته الفرنسية من الاخ العربي فهو يعمل في مجال السياسة ولا يريد ان تحدث له مشاكل ويعمل كل شيء لاهانة العائلة العربية باسلوب عنصري . وبعد فترة من ضبط النفس تحدث مشادة حادة مع الشاب العربي حبيب الفتاة الاول . كما تحدث عدة مشادات لهذا الشاب مع اخيه واخته المتأثرين بالثقافة والواقع الفرنسي وهي قضية يعرفها بعض العرب الذين ولدوا في فرنسا بعيدا عن واقع حياتهم العربية . ومع تطور الأحداث وتتطور الاشكالات بين الجهتين فيتحول الحس العنصري العميق لدى الاخ الفرنسي الى رغبة جارفة في قتل اخته بالسكين وهذا ما يحدث بالفعل . . . تنتهي المسرحية اذن بمقتلها وبتفكك العلاقات بين واقع الارستقراطية الفرنسية الحقودة وواقع الكفاح والانتماء العربي .

ويعترف صاحبنا ان من اكثر الامور حراجة، ودقة الحديث عن الزواج والمتزوجين من اجنبيات . . . وقد لاحظ ان اكثر العرب الذين يتزوجون من

اجنبيات حرصا على «امنهم واستقرارهم» وكسبب للحصول على بطاقة الاقامة أو العمل أسوة بالآخرين، او قد تكون حالة من التظاهر الاجتماعي لاثبات القدرة على اقتحام تقاليد المجتمع الاخرى والبعيدة عن تقاليده وقيمه وعاداته الاصلية.

فعقدة العربي في الغربة تظهر ابتداء من بحثه المستمر، والدائب عن الشقراوات...؟؟ وكثيرا ما يفضل الشقراء، ليؤكد حضوره، وقربه من الاجنبيات!! اللواتي يتميزن عن فتيات شعبه بهذه العلامة الفارقة.

ويتذكر صاحبنا انه وفي ايامه الاولى التقط الكثير من الصور مع الشقراوات... في معاهد اللغة... والحي الذي يسكنه... بل حتى اللواتي يصادفهن في المقاهي، والحدائق والمتنزهات الباريسية، وقد ارسلها الى اهله واصدقائه مدعيا انهن صديقاته ـ الخاصات ـ ومصورا نفسه «خليفة بغداد» في باريس... وذلك كمحاولة لتأكيد حضوره من خلال النساء.

والحديث عن الزواج من اجنبية يختلط فيه الرفض بالقبول، والرغبة بالاستنكار... ومشكلة الزواج هذه لا تنحصر بين اهلي الزوج والزوجة كما شاهد صاحبنا فصولها في مسرحية «العرس» لأنها تتعدى حدود هذه العلاقة لتصل الى مشكلة اكبر واعمق... الا وهي مشكلة الاولاد ـ نتاج ـ الزواج المختلط هذا.

ولعل أولى المشاكل تلك التي تبدأ في اختيار اسم المولود... فالزوجة الفرنسية تفضل اختيار اسم فرنسي لمولودها... والعربي يفضل عكس ذلك. وكثيرا ما تتعكر الاجواء الزوجية، وتبدأ المعارك الصغيرة بينهما بسبب هذه المشكلة... والحل الوسط الذي يهتدان اليه اختيار بعض الاسماء التي توفق بين رغبة الطرفين. فاذا كان المولود انثى فيتم اختيار اسم «ماري» مثلا، وتحل المشكلة، لان اسم «ماري» الفرنسي يمكن ان يكون اسم مريم العربية.

اما اذا كان المولود ذكرا فتلك هي الطامة الكبرى فتكون مشكلة اختيار الاسم اكثر تعقيدا، لان الزوج العربي يفضل تسميته بـ «عبد الرحمن»... بينما تفضل زوجته الفرنسية تسميته بـ «شارل» وليس هنالك من الأسماء لتوفق

باختيارها رغبة الزوجين.

وما ان تنتهي مشكلة اختيار الاسم حتى تنفجر مشاكل اخرى وعديدة لها ارتباط مباشر بكلا الطرفين من حيث اللغة والثقافة والدين والعادات والقيم والتقاليد ونمط واسلوب تربية الاطفال اضافة الى عدم التخلي عن الوطن والمجتمع والاهل والاقارب والاصدقاء. . . وبطبيعة الحال فان هذه الامور كثيرا ما تسبب في تدمير «مؤسسة» الزواج الجديدة.

فمثلا يرى صاحبنا كيف يحرص العربي على دعوة اصدقائه العرب في داره وليتبادل شتى الاحاديث معهم لتذكره بوطنه. . . آلامه واحزانه. . . افراحه ومسراته، ومشاكله القومية، وكذلك الاستمتاع احيانا معهم بالموسيقى والاغاني العربية، التي اعتاد السماع اليها وسط مائدة دسمة من المأكولات العربية الشهية. . .

وما ان تنتهي السهرة حتى يجد زوجته الفرنسية «زعلانة» بسبب تلك الامسية والتي كانت فيها مثل «الاطرش» في حفلة الزفاف.

اما الفرنسية هذه فهي الاخرى كثيرا ما تسبب ازعاج زوجها العربي في اصرارها على تحضير وجبات الاكل الفرنسية والتي اعتادت تناولها وخاصة تلك التي نجد فيها «لحم الخنزير» او استماعها الى موسيقى الجاز او «الروك اند رول» التي لم يتصور صاحبنا سماعها، وكذلك دعوة اصدقائها دون الاستئذان منه، وهي رغم زواجها تصر على الاحتفاظ بعلاقاتها القديمة، وهذا ما يثير غضبه، وغيرته.

والباريسية مشهورة بتمسكها بتقاليدها وعاداتها وحريتها المطلقة واستقلالها التام وبرأيها الخاص. والعربي متمسك بتقاليده وعاداته وحريته ورأيه. ومع هذا فالعربي يحب في المرأة الفرنسية صراحتها، وذوقها وشخصيتها القوية، ولكنه يكره فيها تمردها المستمر، وعدم اطاعتها لأبسط المطالب. اما الفرنسية فتحب فيه حرارته، ورجولته وشهامته وحنانه، لكنها تكره فيه تعلقه بوطنه وبتقاليده وعاداته العربية الراسخة.

وصاحبنا اذ يسجل هذه النقاط التي لم تتطرق اليها مسرحية «العرس» يظل يقول: «ان المجتمع هو المسرح الحقيقي للحياة».

المترو...

ويشق صاحبنا طريقه في باطن الارض وتنقله المصاعد المتحركة الى قاطرات اكثر منها حركة.. ويدور مع القوم وسط علبة سردين مذهلة!

ويركب (المترو) ويسير في كل الاتجاهات.. تارة تحت نهر السن.. وتارة اخرى فوقه.. ويكتشف فيما بعد ان قطارا سريعا يسير في باطن الارض اي تحت (المترو).. وراح يسأل فيما اذا سيكون في المستقبل قطار ثالث يمر تحت الارض الباريسية!؟

لم يتعجب كثيرا.. ولم يذهل لذلك.. لانه يعرف قدرة الانسان على تحدي الطبيعة.. تماما كما تحدى العرب الصحراء وبنوا دولة واسعة الاطراف اذهلت العالم بحضارتها وعلومها ووجهها الانساني.

والمترو عالم كبير.. اجساد بشرية تتحرك بكل الاتجاهات.. موجات من البشر تصعد وتهبط من القاطرات والسلالم الميكانيكية.. الكل يركض.. والكل في عجلة من امره!؟

وتذكر صاحبنا وهو يكتب هذه الاوراق لحظاته الاولى في (المترو) يوم كان يحمل الحقائب الكبيرة التي دست فيها امه (التمن والبامية.. والملح والبهارات والفلفل.. وحتى الليفة والابرة) لانها تخاف من ان لا يعثر ولدها على هذه الاشياء في بلاد الافرنج!؟

.. ولم تحول الحقائب الثقيلة من نظراته ازاء هذا العالم الجديد.. ولعل اول مشهد اغراه مشهد (الكلوشار) المشردين الذين اصبحوا علامة بارزة من

علامات المترو. . هؤلاء ورغم سكرهم وعربدتهم لاينتبه اليهم احد. . ولا يساعدهم الا القليل!؟

والمشردون هؤلاء (الكلوشار) ارتضوا هذه الحياة. . وفضلوا حياة التشرد الازلي على حياة المدن الحضارية. . ! وهم بذلك يتخذون موقفا غريبا ازاء انفسهم وازاء الاخرين. . وازاء الحياة.

واول مفاجأت صاحبنا في المترو طريقة استعمال «الماكنات الالكترونية» الخاصة ببطاقات الدخول «وكثيرا ما ينزعج منها» قافزا من فوقها بخطوات متعثرة. . والتفاتات مستمرة!؟

وكثيرا ما تاه في دهاليز المترو واروقته المحيرة. . وكثيرا ما ظل مسجونا في القاطرات التي وصلت نهاية المحطات وكان يظن انها ستستمر في سيرها. . !؟

استمر المترو في سيره السريع حتى وصل محطة «باسي» ومن هذه المنطقة يخرج من باطن الارض، فاذا به معلقا بين السماء والارض، واذا ببرج ايفل يظهر شامخا وضيفا دائما على سواحل السين. وفي السنوات الاخيرة كثرت حوادث السلب والاعتداء في محطات المترو وكثرت دوريات الشرطة فيه واضاف المترو نزيلا اخر الى (الكلوشار) هو رجل الشرطة.

وكثيرا ما يتلذذ صاحبنا بالمشاهد اليومية في المترو ويراقب الناس الذين صاروا كخيل الطراد والسابق منها الجواد.

تلك عجوز شمطاء دفنت نظراتها على صفحات كتاب لم يظهر عنوانه. . ربما يكون كتاب عن الحب والمغامرات. . او المطبخ والمطابخ. . وربما عن اشياء اخرى لا نعرفها؟.

غير ان هذه العجوز استمرت عشرين دقيقة دون ان تنتهي من صفحة واحدة؟! واغلب الظن انها لا تحمل هذا الكتاب للقراءة. . بل لكي تتخلص من رؤية الاجانب الذين يشاركونها نفس المقعد!؟

ورغم أن المسافة التي يقطعها المترو تحت الأرض تتعدى ٢٥٠ كم مارا

بأكثر من ٣٠٠ محطة . . رغم هذا فأن صاحبنا رأى أن محطة «اللوفر» من أجمل المحطات وأبهاها . . أما محطة «شاتيليه» فتعد من أكبر المحطات التي تتفرع منها الخطوط العديدة . . وفيها نسمع قصة المترو. أما بقية المحطات فهي وسخة وكئيبة رغم الموسيقى التي لا تقتل هموم الأجانب وخوفهم من العنصريين في المترو!؟.

والعنصريون هنا كثيرون . . ويكفي ان تمنحهم فرصة بسيطة ليعلنوا وبكامل حريتهم مبادىء العنصرية وفلسفاتها واهدافها.

والعمال العرب ظاهرة من ظواهر المترو. . ومشهد يومي حزين . . لقد حمل هؤلاء المكنسة لتنظيف الوساخة اليومية وكنا نتمنى ان يعملوا عملا اخر ويحملوا شيئا اخر

والشعارات التي تكتب على جدران المترو كثيرة جدا فهناك الشعارات والحروف العربية التي تعكس انقسامات السياسة العربية وهناك الشعارات الايرانية التي تشتم السياسة الخمينية . . وهناك من الفرنسيين من ينزعج من هذا وذاك ويصرخ . . ايها الاجانب اخرجوا من بلادنا!؟

جدران المترو جريدة يومية ناطقة ومنبر حر وعليك ان تحمل «طبشورة» او قلما وتكتب ما تشاء ولكن احذر من الاخرين . . ؟؟

لحظات ويعود المترو الى باطن الارض، ويشتد الازدحام عند محطة «مونبرناس» هنا يصعد احد الشباب الذين يعزفون الموسيقى . . ثم بدأت الموسيقى ، وبدا يغني!

باريس في الصيف باريس في الشتاء، امرأة جميلة بلا قلب!! ثم يعطف عليه الناس ويدسون في يديه بعض الفرنكات.

. . وفي القاطرة كثيرا ما نسمع الموسيقى ، لكنها موسيقى حزينة تعكس التأزم النفسي لهذه المدينة المثيرة. ان الناس هنا يطردون حتى النظرات البريئة.

وفي المحطات ينهمك العمال العرب بتنظيف الارصفه والقيام بالاعمال

الصعبة هؤلاء كانوا يحملون السيف والرمح. . وهم الان يصولون محطات المترو بمكنسة قذرة. . !؟

وصل صاحبنا الى محطة «شاتيله» الكبيرة وهناك استمع الى تاريخ المترو الذي انشيء في بداية هذا القرن واستغلت محطاته كملاجيء ايام الحرب. . لكن المترو تطور كثيرا وتشعبت خطوطه. واليوم نرى قطارا سريعا يتحرك تحت المترو. . باريس تكبر.

قلت نعم كل شيء قد توفر لكنَّ الناس مازالوا يبحثون عن السعادة فلا يجدونها.

كلوشار[1]

مشردون بأرادتهم ومع سبق الاصرار . . . لا يعرفون من هذه الحياة الا زجاجة نبيذ راحوا يحتسونها بنهم ورغبة شديدة!

ويتذكر صاحبنا انه وعندما شاهدهم وللوهلة الاولى فقد اصطدم بحقيقتهم وبمنظرهم المأساوي المريب.

اكثر من خمسة الاف «كلوشار» يتشردون في محطات المترو ايام الشتاء القارس. . واذا ما أنتهت رحلة الشتاء فانهم يخرجون الى الساحات والحدائق العامة. واما مقاهي باريس فهي محرمة عليهم.

وللكلوشار فلسفة التشرد الخاصة بهم. . انهم لا يحسدون الناس على ما عندهم ولا ينظرون الى الحياة الا من خلال زجاجة نبيذ حمراء!

وصاحبنا كثيرا ما تقرب من هؤلاء وشم الرائحة التي تميزهم والقمل الذي يملاء اجسامهم! روائح كريهة لا يمكن مقاومتها بسهولة. . . انها تدمر الشهية وتتلف حاسة الشم وربما حواسا اخرى!؟

والكلوشار يشرب اكثر مما يأكل. . ويوسخ اكثر مما ينظف. . واطيب الروائح الى قلبه رائحة جسده الذي لم يعرف الاستحمام قط! وان حدثك كلوشار فيجب ان تبتعد عنه بضغة امتار ولا داعي للقلق من عدم سماع صوته فهو لا يعرف الحديث إلا بصوت عال جدا!

وهذا الكلوشار لا يسمى بأسمه دون ان يمسك في يده زجاجة النبيذ الاحمر والاحمر فقط لانه لا يهتم بالالوان الاخرى من النبيذ الفرنسي كالابيض

والوردي كما لا يهم جمعية الكلوشار استيراد النبيذ الجيد «بوردو» والمهم ان يؤدي النبيذ الاحمر وظيفته. . ويشرب الكلوشار حتى الثمالة بعدها عليك ان تستمع الى نصائحه في الحياة وحكمه في هذه الدنيا الفانية. وهو لا يتوانى من سب القادة والسياسيين والناس اجمعين. وكثير من الناس من يستأنس بأحاديث الكلوشار ومنهم من يشاركه الحديث لكن الكلوشار يفضل دائما الحديث مع نفسه وليس مهما توصيل افكاره الى الاخرين المهم ان يصرخ باعلى صوته لكي يحسس الاخرين بوجوده!.

وفي الشتاء القارس تبدأ رحلة الحزن والعذاب. . في هذا الفصل وعندما ترتدي باريس ثوبا ثلجيا عند قباب السوربون. . واشجار البولون وحدائق اللوكسمبورج. . يبحث الكلوشار عن مكان ليختبىء به هربا من شدة البرد.

ولا يحق للكلوشار البقاء في محطات المترو بعد الساعة الواحدة صباحا حيث تنتهي حركة المترو والناس وكثيرا ما يعلن تمرده. ومن وقت لاخر تطاردهم شرطة خاصة وتقودهم الى مصحات في «نانتير» في ضواحي باريس.

وكثيرا من الكلوشار من يموت بردا او منهم من يذهب في دهاليز السكك الحديدية للمترو فيلقى حتفه في الصباح؟؟

والكلوشار الذين اختاروا حياة العزلة اكثرهم من ضحايا الحروب الاستعمارية في الهند الصينية وفي المغرب العربي وفيهم من كان موظفا كبيرا لكنه فضل فيما بعد حياة الكلوشار على حياة الصالونات الباريسية وهناك الكثير من الادباء والاساتذة الذين انتهوا الى نفس الموقف. . . التشرد والعيش على هامش المجتمع الرأسمالي؟؟

والحياة الخاصة للكلوشار لا يعرفها احد رغم ان عددا لا بأس به من النساء «الكلوشاريات» قد دخلن معترك الحياة المتروية وكثيرا ما تقع المعارك الصغيرة بينهن لكن الصلح يعلن بسرعة تحت ضربات قناني النبيذ الاحمر!

وتفيد احصائيات الشرطة الفرنسية ان نسبة كبيرة من الكلوشار يموتون

من جراء الادمان على الخمرة. . كما يموتون في ايام الشتاء الباردة.

والكلوشار لا يفكر في البيت، انه مخلوق تعود على حياة التشرد بسبب ظروفه العائلية والحياتية واكثرهم من الذين افجعتهم ظروف الحياة والعائلة في المجتمعات الغربية والذين اصيبوا بخيبة امل كبيرة وهم يسيرون في اشواك هذه الدنيا. . دنيا المجتمعات المفككة.

والكلوشار صاحب موقف فهو لا يميل الى التسول. . ولا يطلب المال الا نادرا! وهو سعيد بحياته رغم ان منظره لا يدل على ذلك!؟. . سعيد لانه كثيرا ما يصرخ بوجه الناس قائلا:

لست قلقا مثلكم لا املك بيتا ولا سيارة!. . لاني لا اريد ان ادفع الضرائب الى الدولة لا املك امرأة لانها سوف تنجب لي اطفالا! يحتاجون الى امور كثيرة لا اريد ان اكون عبدا لها! ها انا حر في وقتي وعملي. . وليذهب الجميع الى الجحيم».

ويعرف صاحبنا ان عددا من الكلوشار كانوا على درجة كبيرة من الثقافة والمنزلة الاجتماعية وكثيرا منهم خاض الحروب العالمية وهؤلاء اصيبوا بصدمة كبيرة وفضلوا العيش على هذه الطريقة المزرية.

وفي محطات المترو الباريسي كثيرا ما يشاهد الكلوشار وهو يخطب بلسان فرنسي واضح كافرا بهذه الحياة التي جعلت من الانسان مثل قاطرة صغيرة تسير على سكة واحدة ولا يحق لها تغيير الاتجاه الذي رسم لها؟؟

وصاحبنا كثيرا ما يطيب له الانصات الى خطب هؤلاء. . مرة شاهد احد الكلوشار شخصا منهمكا ومسرعا الى مكانه فمسك به قائلا:

«انت على عجلة من امرك؟؟ اعرف ولكن لا ينفع هذا لانك ستصل متأخرا»!

وذات مرة ايضا حصلت مشاجرة بين كلوشارين بسبب «كلوشارة» فضلت الاول على الاخير فما كان من الثاني الا ان يمسك بالاول مهددا له وواعدا بعذاب يوم القيامة؟ ومشكلة الكلوشار انهم يفتقرون كثيرا الى الجنس

الآخر نسبة الكلوشار الى الكلوشارات تعد واحدة على عشرة!! وهي نسبة ظالمة تجعل الكلوشار يعيشون حياة خالية من النساء.

والمؤسسات الاجتماعية والخيرية لها مواقف طيبة من هؤلاء «الكلوشارية» ففي كل نهاية عام تقام لهم احتفالات خاصة وتوزع عليهم الهدايا.

وفي احدى السنوات كان نصيب احد الكلوشار هدية كانت عبارة عن «منشفة» كبيرة وقبل ان يتسلمها صرخ قائلا:

«اين زجاجة النبيذ التي وعدتموني بها.. ابعدوا عني هذه الوساخة»؟؟

والكلوشار لا يميل الى الشوارع والساحات النظيفة انه يستأنس كثيرا بالاماكن المهملة والوسخة والتي تكثر فيها القمامة، وكثيرا ما يفتش عن لقمة بين اكوام القمامة الا النبيذ فانه يحرص كل الحرص من ان يكون طازجا؟؟

وصاحبنا كثيرا ما يشتد به الحزن وهو يرى بعض المهاجرين العرب قد انتهوا الى المصير نفسه. ففي شوارع بيغال وبارباس وحتى في ازقة الحي اللاتيني تعثر من وقت لآخر على عربي وقد تحول الى مشرد ومدمن على الخمرة!

ومعظم هؤلاء العرب الذين فقدوا وظائفهم اصبحوا بين عشية وضحاها بلا عمل وبلا مأوى.

ترى من هو المسؤول عن هذا كله؟ أما يكفينا عذاب الغربة حتى نصطدم بمثل هذا المشاهد المأساوية.

الحي اللاتيني

.. ثم نظر من بعيد فاذا به حي جميل يكثر فيه الناس، وتفوح منه روائح المطاعم العربية والاغريقية والصينية والايطالية والفرنسية .. ويقترب اكثر، فاذا بالموسيقى العربية والاغريقية تضيف لونا جميلا حول حركة الناس والاشياء.

حي صاخب وعالم خاص يكثر فيه السياح الذين يحملون حقائبهم على ظهورهم بينما حملت ايديهم «سندويتشات» صغيرة.

وترى فيه «الكلوشار» وايضا الطلاب الذين يخرجون من السوربون بحثا عن مقاهيهم المفضلة.

.. عالم يختلط فيه كل شيء السياسة بالاقتصاد، والدين بالالحاد والاستقامة بالعبث، بركان انساني هائل تفجرت منه احداث عام ١٩٦٨ التي هزت فرنسا وكادت تتسبب بحرب اهلية مدمرة.

الطلاب يوزعون منشوراتهم اليسارية، بينما يضحك «الكلوشار» من بعيد ويلوحون بزجاجات النبيذ الاحمر .. ساخرين من الحياة والتزاماتها.

والحي اللاتيني مدرسة اجتماعية هائلة جذب الكثير من الشخصيات الشهيرة .. من لينين الى ماو .. ومن سنغور الى اراغون ورينوار الى بيكاسو .. وحتى غارسيا ماركيز الروائي الكولومبي الذي كان ينام على سطوح الفنادق ويعتاش من بيع القناني الفارغة.

يحاول صاحبنا ان يتذكر اول لقاء له مع هذا الحي العتيق يجهد نفسه

ويغوص في بحر الذكريات فاذا به امام لوحة سريالية اختلطت فيها الالوان بالروائح وحتى باعقاب السجائر والقناني الفارغة وما يتقيؤه المشردون في زوايا البؤس الباريسي. لم يعرف بعد انه وصل حدود الحي اللاتيني لان باريس كلها صارت مركزا للحركة والنشاط وتجمعات الناس.

لقد شاهد الناس يجتمعون على شكل حلقات؟ حلقة مندهشة وهي تراقب ماذا يفعل هذا «المشعوذ» الذي راح يكسر الزجاج ويرميها ارضا.. ثم يجعل منه فراشا ملونا؟؟ وعلى عجلة من امره ووسط صراخ اطلقه في الهواء يخلع فجأة ثيابه.. وفي غمرة المتعة والدهشة التي اصابت المتفرجين يراهن هذا «المشعوذ» على رمي جسده وسط هذه الكومة من الزجاج المكسور ودون ان يصاب باذى؟

وتزداد الدهشة عندما يطلب ثلاثة من المتفرجين الصعود فوق جسده وهو ما زال منبطحا على الارض وبعد دقائق تنتهي اللعبة ويطلع سالما الا من جراح بسيطة ويبدأ التصفيق وتبدأ «الفرنكات» تمطر عليه.

ويلتفت صاحبنا الى جهة ثانية فأذا بها أنامل مغربية راحت ترسم اجواء عربية جميلة في الحي اللاتيني شباب من المغرب العربي ظلوا يقرعون ويداعبون اوتار العود و «الزنجاري» حتى حولوا الشارع الى مرقص كبير.. انهم يحاولون غسل احزان الغربة بالموسيقى والرقص والغناء.

ويفرح صاحبنا قليلا ويقول رغم كل العذاب فأن النفس العربية تواقة الى الفرح ويترك هؤلاء الفتية ويحاول التخلص من الحزن الساكن فيه ويهرع باتجاه ذلك الرجل الفرنسي الذي اخفى في كمه «جرذيا» صغيرا مصنوعا من البلاستيك وراح يقذفه وبشكل مفاجيء على المارة وخاصة الفتيات منهم.

ومن هناك وهنا تكبر خشبة المسرح وتكثر الفعاليات المجانية والعفوية ولا داعي للحديث عن ذاك الذي يبتلع شفرات الحلاقة ويقضم السجائر المشعولة!! لا داعي لانها مناظر مقززة لحد ما؟

في وسط ساحة سانت ميشيل بدات الطبول تدق واذا بمسلة خشبية

تنصب في الوسط دقائق قليلة ووسط صوت الطبول يصعد على المسلة ماعز كبير درجة . . درجة حتى يبلغ القمة ثم يؤدي التحية للمحتشدين وينزل بسلام؟ وتصفيق وتكريم الى هذا الماعز الذكي ! ! .

ويحلو لصاحبنا مراقبة الحركة الاجتماعية في الغرب وما تفرزه من منظمات وظواهر غريبة ويزور الاحياء الشعبية وسط المدينة ويشاهد الحضور المستمر في الساحات الكبيرة ، ذات مرة خرجت فتاة وقد صبغت شعرها بالوان عديدة واصبح شعرها مثل قوس قزح جميل وكنت اتصور انها موضة هذه السنة . . وبعد ايام اكتشفت العشرات من الشبان والشابات يلونون شعرهم على هذا النحو وسالت عن هذه الظاهرة الجديدة فقالوا انهم «البانك»؟! ، «عشاق الفوضى» فوضويون وساخرون من صالونات باريس ونساء البرجوازية رغم ان اكثرهم ينحدر من هذا الوسط البرجوازي ! .

وهناك من يرتدي ثيابا موحدة كأصحاب «القمصلات السود» وهم في غاية الشراسة وكثيرا ما يقومون باعتداءات ثم يهربون على درجاتهم النارية .

والحي اللاتيني كشاف لظواهر عديدة ويكفي ان ظاهرة «الكلوشار» بدات منه وانتهت في محطات المترو بعد ان فقد الكلوشار بريقهم على جادات باريس ولا ننسى ان الحي اللاتيني كان مرتعا للهيبية ايضا .

وعلى ما يبدو فان الحي اللاتيني فقد الكثير من هذه الحيوية فهناك وامام الساحة الكبيرة لمركز «جورج بومبيدو» حالة شبيهة بحالة الحي اللاتيني لقد تحولت الساحة الى مسرح كبير من الفعاليات المذهلة وكذلك اروقة «الهال» وهو السوق المركزي الجديد الذي اسس مكان السوق الشعبي القديم .

باريس حالة متجددة . . تتغير باستمرار مثل الفصول الاربعة . . ولكي تكون باريسيا مخضرما فعليك ان تنتبه الى تقلبات هذه «الجغرافية الباريسية»؟ ولكن احذر من قلبك قليلا؟؟ .

اللوفر

وعندما كان صاحبنا تلميذا في الثانوية، كان يسمع ويقرأ الكثير عن متحف اللوفر ولوحة الموناليزا الشهيرة. . وعن باريس ونابليون والثورة الفرنسية، وما زال يحتفظ بذاكرته الشيء الكثير عن محاضرات استاذ مادة التاريخ في «الاعدادية المركزية» ويتذكر انه كثيرا ما يتضايق من عبارة «والنسخة الاصلية موجودة» في باريس ويتذكر ايضا انه كان يسأل استاذه وبالحاح واضح ولماذا كل اثارنا هناك؟ ومن الذي سرقها؟؟.

يومها لم يجد الجواب الشافي. . ولم يناقش كثيرا. . لانه لم يعرف بعد صراع الحضارات وحركة التاريخ؟. . ولعبة الأمم. .؟

وعندما هبط صاحبنا في مطار فرنسا. . كان يعتقد انه سيجد مكانة خاصة واحتراما خاصا وان القوم سيعرفون انه من بلاد الرافدين ووادي النيل. . لان اجداده القدماء قد منحوا الاوروبيين متعة المشاهدة والدراسة والتحليل لاول نتاج انساني شهدته البشرية. كما ان بلاده هي مصدر الحضارة والديانه والبترول والشمس والحياة. . وكل شيء جميل هم بحاجة له. .

تذكر حمورابي وعدله. . ونرام سين وجراته وفرعون وجبروته. . ونبوخذ نصر وقوته وبرج بابل. . . وعلوم الفلك وصناعة السفن. . والاهم من هذا وذاك تذكر الحروف الانسانية الاولى التي وجدها في الكتابة المسمارية.

وصدم صاحبنا على الفور لان القوم لا يعرفون شيئا كثيرا عن العرب وربما جاملوه بضحكة مشكوكة آه بغداد. . «الف ليلة وليلة». . ولم يكن له اختيار ثالث الا ان يتعلق وبحب اكبر بالحقيقة التي آمن بها وبالقدر الازلي التي

تعيشه الارض العربية .

ذهب في ايامه الاولى الى اكبر متحف يعرفه العالم انه متحف اللوفر الشهير وهناك ظل صاحبنا يطوف القاعات ويتوقف هنا وهناك وكثرت تساؤلاته . . وزاد ايمانه . . «وليوءمن القوم بما يعتقدونه؟» .

ويعترف صاحبنا ان متحف اللوفر معبد جميل . . معبد للفن والحضارة والتأمل الانساني النبيل . كبير ورهيب اختلطت فيه ألوان اللوحات الكبيرة والانصاب الجميلة والاثار العظيمة . . وباصوات السياح والدارسين والمهتمين بعلوم الاثار والحضارات الانسانية . الكل يتأمل . . والكل مندهش . . والكل ظل مشدودا الى عبقرية الانسان وقدرته على الخلق والابداع .

وفي عام ١٧٩١ يعلن رسميا عن افتتاح متحف اللوفر وتنهال على متحفه الكبير لوحات اكبر الفنانين في عصر النهضة ، وهنا بدا التفكير لضم اكبر عدد ممكن من الاثار العالمية ونشطت سوق (الاثار المسروقة) وعرف العالم في بداية القرن التاسع عشر اول «مافيا» للمتاحف العالمية ، انهم سماسرة الاثار من الهيئات الديبلوماسية وبعض المستشرقين ومن لهم علاقات ومصالح في الاقطار العربية .

وفي القرن التاسع عشر تبدأ حاجة اوروبا الناهضة الى رموز واثار حضارية تساهم في دعم مسيرتها وفي هذا القرن يكتشف صاحبنا ان الامة العربية خاضعة لسلطات الدولة العثمانية الجائرة وفوق هذا وذاك فهي تغط بسبات موءلم عميق .

في هذا الوقت ينشط المستشرقون وسماسرة الاثار والديبلوماسيون الغربيون في الاقطار العربية . . ويتعاونون جميعا على سرقة الاثار العربية ! .

في متحف اللوفر يطوف صاحبنا في قاعاته ويشاهد الاثار العربية والعراقية والمصرية التي لولاها لما كان هناك اللوفر ! .

في قاعة معزولة عن حركة المتحف والناس يعثر صاحبنا وبعد ان سال كثيرا عن قاعة «بابيلون» ويجد نفسه امام مسلة حمورابي التي سرقت سنة ١٨٥٠

ونقلت الى باريس وتم نصبها في بداية هذا القرن وللمعلومات فان القانون الفرنسي ما زال يعتمد على فقرات وجدها في شريعة حمورابي!

ويتأمل صاحبنا كثيرا في قاعة «الرؤوس المقطوعة».

هذه القاعة ستبقى وإلى الأبد الشاهد على بربرية «المتحضرين» كل ما في القاعة من تماثيل جميلة قد قطعت رؤوسها بينما ظل «جوديا» برأسه وكوفيته شاهدا على هذه المجزرة الاثرية؟

واغلب الظن ان الذين سرقوا آثارنا تعاونوا فيما بينهم فمنهم من فضل الرأس لسهولة حمله فقطعه وذهب بسلام ومنهم من لم يجد الا الجسد فجاء به.

وهناك قاعات اخرى تناثرت فيها الحلى والمجوهرات والتحفيات الصغيرة التي كان يستعملها الاكاديون والسومريون والاشوريون.

آثار وحلي ومنحوتات جميلة يكتشف فيها المشاهد مكانا واسعا في قاعات اللوفر ويتأمل كثيرا في المومياء وفي ابداعات ابناء مصر الغالية.. وكل ما يتمناه عودة هذه الآثار والامتثال لقرار اليونسكو الصادر عام ١٩٧٥.

ويطوف صاحبنا في اهم قاعات الرسم تلك القاعة الكبيرة التي ضمت اعمال كبار الفنانين الفرنسيين مثل دافيد الذي راح يطارد نابليون في غزواته وفي مراسيمه الثورية وهذا الفنان قد نجح في استحضار الروح النابليونية وعنفوانها من خلال اللون والفرشاة انه رسام نابليون والثورة الفرنسية.

.. ديلاكروا هذا الفنان الكبير الذي رسم الحياة العربية في الجزائر ما زالت لوحته الشهيرة «الحرية تقود الشعب» التي نفذها عام ١٨٣١ تعد اجمل لوحاته وابهاها... وقد اخذت هذه اللوحة طريقها الى «الاوراق النقدية الفرنسية» عام ١٩٧٩.

ويعترف صاحبنا ان الحديث عن اللوفر لا يتم بهذه السهولة دون الاشارة الى رائعة الفنان الايطالي الشهير دافنشي «الموناليزا» ودافنشي قدم الى باريس عام ١٥١٥ ومات في شاتو دي لوار في فرنسا ونال هذا الفنان عناية

خاصة من اشهر نبلاء فرنسا في ذلك الوقت فرنسوا الاول.

والموناليزا حملها معه من ايطاليا ولم يدر بخلده انها ستخلده الى هذا النحو انها اليوم علامة متحف اللوفر! تماما مثلما اصبح ايفل علامة لباريس؟. في عام ١٩٦٣ تطير الموناليزا الى نيويورك ويستقبلها الامريكان بحفاوة بالغة وفي عام ١٩٧٤ تطير مرة اخرى الى طوكيو ويهرع عشاق الفن من اليابانيين وغيرهم لاستقبال الملكة الصامتة.

ومنذ ذلك الوقت والموناليزا يزيد دلالها على ادارة متحف اللوفر فتطلب حراسة مشددة واجراسا الكترونية. لكنها تبقى لوحة ثانوية..؟.

وصاحبنا لا تهمه هذه المشاغلات وتجمع السياح بكثرة حولها لانه اكتشف ان لوحة الموناليزا قريبة جدا من لوحة عراقية قديمة تعود الى الفترة الاشورية؟! كم هو العالم صغير؟

حيّ الرسامين

ويعترف صاحبنا ان اجمل المناطق الباريسية المحببة اليه . . . منطقة حي الرسامين «مونتمارت» . . حي جميل مدهش . . رومانتيكي . . شاعري . . يختلف كل الاختلاف عن مناطق باريس الاخرى .

وصاحبنا وكلما زار حي الرسامين يستمع الى الحوار التالي :

آنستي كم أنتِ جميلة . . آه . . هل لي ان افوز برؤ ية هذا الوجه الجميل لحظات واودع هذا الجمال على مساحة الورق الابيض لا تفكري كثيرا فالسعر زهيد جدا ١٠٠ فرنك فقط .

ماذا تقول . . ؟ ترد عليه السائحة الجميلة . . .

غال جدا ! !

حديث من هذا النوع يتكرر كل لحظة وكل ساعة في مونتمارت حي الرسامين الشهير، حيث تختلط اجواء الرسم بأجواء السياحة .

وكثيرا ما يصرف الفنان وقته لاقناع الزبون . . وكثيرا ما يدخل الفنانون انفسهم في منافسات خاصة فعندما يعرض الاول سعرا مرتفعا على الزبون يأتي الثاني ليأتي بسعر زهيد وهكذا الى ان يصطاد الفنان ويرمي فريسته بشباك اللون والفرشاة .

منظر جميل . . سائحة ينافس جمالها كلوديا كاردينالي . . او رومي شنايدر . . او صوفيا لورين . . طرية مثل اغصان الزيتون «تجلس اسيرة بين

يدي الفنان» يبدأ الفنان رسم الخطوط الاولى يحتشد الناس من حولها. . عين عليها. . وعين على انامل الرسام. . ومنهم من تعجبه، فيهز رأسه راضيا ومنهم من يعرض عنها غاضبا. . والمسكينة ليس لها الا ان تسجل انطباعات الناس دون ان تستطيع رؤية ماذا يفعل الرسام بها.

وحي مونتمارت من الاحياء الباريسية القديمة، الحق بباريس عام ١٨٦٠ واصبح ضمن الدائرة الثامنة عشر للمدينة.

يقع الحي على مرتفع لا يمكن الصعود اليه بسهولة خاصة للذين يعانون من السمنة. . او الذين يعانون من امراض القلب وما شابهها. وعلى قمة المرتفع وبجانب حي مونتمارت تنتصب بجمال ووقار كنيسة «القلب المقدس» وهي آخر كنيسة بناها الفرنسيون في باريس.

وحي مونتمارت متميز لحد ما بشكله وما زال يمثل الطابع القديم للاحياء الباريسية. . بأزقته الضيقة. . وبالطابوق الذي رصفت به شوارعه والمطاعم الباريسية القديمة.

وفي الشتاء تقل الحركة فيه. . وتفرغ ساحة الرسامين من النشاطات الفنية. . اما حركة السياح فهي الاخرى قليلة جدا، لكن المطاعم والمقاهي تغص بالسياح والفرنسيين الذين يعشقون احياء باريس القديمة ويمجدون لويس السادس عشر والنبلاء. . ويتأوهون من نابليون وروبسبير ودانتون. ويسجل صاحبنا المظاهر العربية في مونتمارت وهي كثيرة ايضا. . . فقبل الصعود الى الحي. . اي في شوارع بيغال تصادفك وجوه العرب واكثرهم من العمال المهاجرين الى فرنسا من اقطار المغرب العربي، وهؤلاء يعيشون ظروفا صعبة لا يمكن الحديث عنها بسهولة. .

والحديث عن الفنانين العرب الذين يعملون في حي مونتمارت لا بد منه. . وهناك الكثير منهم. . العراقي، والجزائري، والمصري وكلهم يعيشون ويكسبون من خلال بيع اللوحات في ساحة مونتمارت! والغريب ان بعض هؤلاء كان يسخر من ظاهرة ان يتحول الفنان الى تاجر يلهث وراء الزبون. . فاذا به يطوف حي مونتمارت بحثا عن زبون يرسمه؟!

ولحسن الحظ فهناك بعض الرسامين العرب من حقق نجاحا جيدا في مجالات الابداع والعمل في باريس مثل المصري جورج بهجوري والعراقي أرداش كاكافيان واللبناني وضاح فارس. ورغم الحركة الفنية البعيدة عن الابداع. . وشروط العمل الفني المبدع في هذا الحي العتيق فأن الكثيرين قد طردوا لانهم لم يحصلوا على موافقة الدولة للعمل الفني. . هؤلاء يهربون الى الشوارع والساحات الاخرى، فيحولون مساحات الارض الى لوحة كبيرة ممتلئة باللون والموضوع.

ويكفي للفنان الذي يرسم على ارصفة الشوارع ان يكتب اعلانا يطلب فيه المساعدة المالية بجانب اللوحة التي رسمها على الارض. . . وبعد ذلك تنهال عليه الفرنكات فيذهب سعيدا بما حصل عليه. والظاهرة الفنية البارزة في حي الرسامين. . وحتى في صالونات باريس الكبيرة. . . هي غياب الابداع وغياب الاساليب الفنية المتميزة.

وكل ما شاهده صاحبنا ما هو الا محاولة لاجترار ما قذفته المدارس الفنية الكبيرة بدءا بالاكاديمية الكلاسيكية ومرورا بالانطباعية. . وانتهاء بالسوريالية والتكعيبية والوحشية. . الخ.

ان حي مونتمارت ما زال ينبض بالحياة والحركة. . لكنه لم يقدم الجديد الممتع على مستوى الرسم. . . ربما يبقى الحي والى الابد مكانا جميلا لقضاء الوقت. . والسياحة. . لكنه سيظل دون مستوى الابداع الفني الذي عرفناه عند الذين عملوا فيه في الماضي مثل رينوار وفان كوخ وسيزان وغيرهم.

وللبراغيث سُوقـها

ربما تضحك او تندهش! . . لكن القوم يسمونه هكذا؟ وثبتوا اسمه في اكبر قاموس يعرفونه وهو «لاروس».

و «سوق البراغيث» سوق فريد عجيب طريف غريب! يكتظ بالناس في ايـام السبت والاحد والاثنـين فقط اما بـاقي الايام فهي اجـازة للبـراغيث والحشرات والجرذان وما شابه ذلك!!

هذا السوق يختلط فيه القديم بالجديـد والجمال بـالقبح وايضـا ابناء البروليتاريا مع ابناء البرجوازية؟

هو سوق يرتاده احفاد الاسر العريقة الذين ما زالـوا يحنون عـلى ايام باريس وشوارعها والعربات المطرزة التي تجرها خيول النبلاء امام كاتـدرائية نوتردام . . وسان جرمان وساحة الاوبرا وجسر شاتليه.

وهو كذلك سوق المشردين والمحرومين الذين وصفهم الروائي الفرنسي الخالد فيكتور هيغو في اروع كتبه «البؤساء».

وفي هذا السوق العتيد الذي يقع في «بورت كلينيانكورت» تجد فيه كل الذي يدور في خاطرك ملابس قديمة وحديثـة . . أثاث حـلي ومجوهـرات . . ولوحات . . وربما تعثر فيه على لوحة نادرة تعود اصولها الى لويس الرابع عشر او السـادس عشر . . او سيف من معـارك نابليـون وايضا «جـزمـة» لكبـار الكلوشارية في باريس؟؟

وهذا السوق يذكر صاحبنا بسوق «هرج» في بغداد او السوق العربي في

تونس وكثيرا ما يذهب لزيارة هـذا السوق الـذي تنشط فيه حـركة النـاس والبراغيث لكنه ظل منشدا الى مظاهره الجديد. . احيانا يشاهد سيدة عجوز وقد جاءت بملابسها او ملابس زوجها وربما جيرانها ايضا وقدمت الى هـذا السوق لبيعها وبالجملة؟

واحيانا اخرى تجد شابة قد حملت كل اسطواناتها. . واحذيتها. . وشيئا من لعب الطفولة وجاءت الى السوق لتبيع هذه الاشياء الطريفة وعلى طريقتها الخاصة؟؟ ومما يزيد من طرافة هذا السوق امتزاج الموسيقى الحديثة جدا مع الموسيقى القديمة! وتصور سماع الفيس برسلي مع موسيقى باخ او شوبان. وفي بعض مقاهي السوق تتصور انك قد رجعت اكثر من قرن الى الوراء. . الصور وطريقة الغناء وشكل المقاهي كل هذه المظاهر توحي لك وكأنك تعيش باريس قبـل مئة عـام او يزيـد! وفي مقهى لوزيت يمكنـك أن تعيش تلك الأجواء الباريسية القديمة.

وهناك من وظف نفسه للعمل في هذا السوق من خلال ما يلتقطه صباح كل يوم في شوارع ومساحات باريس!؟

إن شوارع باريس وخصوصا في الصباحات المبكرة جدا تجدها مليئـة بالاشياء التي يرميها الناس. . تجد مثلا اجهزة التلفزيون والثلاجات والغسالة وربما تجد سريرا او «لحافا» او كرسيا. . او طاولة. كل هذه الاشياء وغيرها تجدها امامك ويحق لك حملها مجانا الى بيتك وتأثيثه على هواك؟

وسر هذه الاشياء ايها العزيز انها رميت في الشارع لان فيها عطبا بسيطا واغلب الظن ان الناس يفضلون شراء الاشياء الجديدة والتخلص من الاشياء القديمة وخاصة تلك التي يتطلب تصليحها مبالغ طائلة؟؟

ويتذكر صاحبنا انه رأى اول ما رأى جهاز تلفزيون جميل على رصيف في شارع فيكتور هيغو وكان لا يعرف بعد اسرار القوم وظن ان هذا الجهاز عائدا الى احد الناس وانه لا محالة سيرفع من مكانه. . لانه ليس من المعقول ترك هذا الجهاز في الشارع وبهذه السهولة؟؟؟ وحل المساء. . وعاد صاحبنا الى غرفته فوجد التلفزيون في مكانه لم يرفعه احد! ولم يصدق واستغرب كثيرا! . . وفكر

في حمله الى غرفته الواقعة في الطابق السابع والمطلة على نفس الشارع ولكنه ارتعد وارتجف وفكر في عواقب هذه العملية . . . وفضل النوم على احلام سعيدة بدل الدخول في مشاكل لا تحمد عقباها!؟

وفي الصباح ينهض فيجد التلفزيون في مكانه . . وقرر هذه المرة حمله والصعود به الى غرفته العالية! وكان له ما اراد. وبينما كان يهم بتشغيله وجده عاطلا ولم يحزن كثيرا وفكر في الاحتفاظ به كي يكون من الديكورات التي تزينت بها غرفته. ومنذ ذلك الوقت وبعد معرفته اسرار هذه اللعبة لم يفكر بحمل شيء استضافه الرصيف لان القوم في مثل هذه المجتمعات المادية لا يتركون على عظم قطعة لحم بسيطة؟؟

ولكن هناك من الناس من اشتغل واعتبر المسألة مهنة مثل بقية المهن ولهذا فقد صار يخرج يوميا في الصباح الباكر بحثا عن الاشياء التي تترك على ارصفة مناطق باريس البورجوازية وخصوصا في الدائرة السابعة والسادسة عشر.

ويتذكر صاحبنا أن بعض الطلبة والعمال الذين لا يقومون على شراء الاثاث يجهدون انفسهم للحصول عليها بمثل الطريقة التي تحدثنا عنها وشاهد مرة في منتصف الليل طالبين تعاونا على حمل سرير كبير وكانت المسافة التي قطعاها طويلة جدا تطلبت الوقوف والاستراحة وتصور معي ايها العزيز هذا المنظر العجيب الذي لم يعتده الباريسيون من قبل !؟

وفي سوق البراغيث تجد كثيرا من البضاعة السوداء يحملها بعض الذين دخلوا جمعيات البطالة؟ وفي السوق هناك بعض المظاهر العربية . . . تجد ابناء المغرب العربي وهم يبيعون ويشترون البطانيات «المزركشة» والحلي والساعات وبعض المصنوعات الفولكلورية واحيانا الملابس المستعملة وتشاهد في كل الاوقات الاسطوانات العربية وبعض اللوحات التي خطت بحرف عربي جميل.

ويعود صاحبنا الى اول يوم شاهد فيه هذا السوق وتذكر انه كان بحاجة الى مظلة لدرء خطر الامطار التي تكثر في المدن الغربية. هنا تهطل الامطار في

الصيف والشتاء وتجد في اليوم الواحد مظاهر الفصول الاربعة! والحالة هذه فان حمل المظلة واجب تماما مثل واجب الاستماع الى النشرة الجوية التي لها من المستمعين ما يزيد على مستمعي نشرات الاخبار السياسية.

المهم ذهب صاحبنا الى هناك ونزل محطة «كلينيانكور» وراح يسأل عن هذه المظلة الرخيصة ووجدها واشتراها فعلا.. ولانه لم يتعود ابدا على حمل المظلات في شوارع القوم فقد نسيها في احدى مقاهي باريس ومنذ ذلك اليوم لم يفكر بشراء مظلة ثانية وسلم امره لامطار باريس؟؟

يوم تشرق فيه الشمس

. . وكما ان البترول البسوه ثوبا عربيا وعقالا وكوفية. . واصبح مصدر الخطر والازعاج للانظمة الرأسمالية والمسؤول الاول والاخير عن ازماتها الاقتصادية فانه كما يبدو سوف تتحمل الشمس العربية سلسلة من التهويش والتعريض لانها تشرق اكثر ما تشرق على الارض العربية.

في السنوات الاخيرة وتحت شعار «ليس عندنا بترول ولكن عندنا افكار» بدا الاعلام الغربي يتحدث طويلا عن الطاقة البديلة اي الطاقة التي ستخلف البترول بعد نضوبه وراحوا يخططون وينظرون وقالوا ان البترول سينضب خلال خمسين سنة وان الطاقة الشمسية هي البديل وعن طريق الطاقة الشمسية سوف تطير الطائرات وتسير السيارات وحتى تنوير المنازل والطرقات سيتم عن طريق هذه الطاقة الجديدة؟؟

وقبل اكثر من عام استطاعت طائرة انجليزية عبور بحر المانش عن طريق استعمال الطاقة الشمسية. . يومها تحدث الاعلام الغربي كثيرا. . واعتبر هذا الحدث بداية الخلاص من «ابتزاز البترول العربي» ووداعا ايها النفط العربي؟

وفي احدى اللقطات التي عرضها التلفزيون الفرنسي كان المذيع متحمسا لمنظر الطائرة وهي تطير بلا وقود عربي. . وبلا ابتزاز عربي. . ولكنه ما ان فرغ من حديثه هذا حتى بدا بتلاوة نشرة الاخبار الجوية فقال :ـ لسوء الحظ فان الجو سيكون ممطرا وغائما غدا وليس هناك امل بشروق الشمس خلال هذا الاسبوع؟

ولهذا فهم ربما سيلعنون الشمس لانها عربية وعروبة الشمس سوف تكون موقع جدل ونقاش في اروقة الامم المتحدة من يدري ربما سيحدث كل هذا؟؟

وهؤلاء القوم لا يحبون الشيء الا عند الحاجة اليه؟ فهم لا يذكرون الشمس الا في اوقات السفر والعطلات حيث يعرضون اجسادهم لاشعتها اللاهبة ولا يذكرون العرب الا عندما تشتد حاجتهم للنفط والشمس وغيرها؟

وهم ينظرون الى الوطن العربي كمزرعة كبيرة فيها كل شيء وعليهم استغلالها واذلالها وافسادها.

لقد اتيحت لصاحبنا فرصة زيارة البيوت التي تسير عن طريق الطاقة الشمسية وكذلك الاجهزة الضخمة التي تسعى لجمع وتخزين هذه الطاقة.

والمشكلة من اولها الى آخرها متعلقة بعدد الساعات التي تشرق فيها الشمس في اليوم او في الشهر وبما ان اوروبا تفتقر لظاهرة شروق الشمس فان الحديث عن الطاقة البديلة متعذر.. ان لم يكن صعبا.

يا ليت هؤلاء القوم يصالحون انفسهم ثم يصالحون العالم الآخر، يا ليتهم عرفوا طريق العلم الذي لا يمر الا من خلال الانسان واحترامه واحترام حضاراته التي سرقوها واغتالوها وحنطوها في متاحفهم.

يا ليتهم عرفوا ان التعاون مع العرب لا يتم عن طريق الاستغلال واثارة الحروب المحلية وتخدير المنطقة باليأس والشكوك لكي تبقى «ضيعة» رهن الاستغلال

ان التعاون مع العرب يتم عن طريق احترام حضارتهم ومكانتهم التاريخية عن طريق احترام ارادتهم وحقهم في اختيار مستقبلهم وحياتهم.

وما هذه ايها العزيز الا تأملات سقطت من الذاكرة في يوم اشرقت فيه الشمس في باريس.

والشمس عندما تشرق هنا يتسارع القوم لتعريض اجسادهم لتكتسب

لونا «برونزيا» فترى في الشوارع والمقاهي وعلى ساحل نهر السين وقرب النافورات في الساحات العامة وحتى في الحدائق الكبيرة وغابات البولون ترى الناس وقد خلعوا نصف ثيابهم.. او كلها! لكي يستحموا بالشمس وتتحول مدن اوروبا في مثل هذه اللحظات الى ساحل كبير على بحر السيارات والمقاهي والمطاعم!

وصاحبنا لا تستهويه هذه المشاهد كثيرا لان وجهه قد صَدِأ من الشمس العربية اللاهبة.. لكنه يظل ينظر.. ويتأمل هذه الظاهرة والتي لو استمرت شهورا طويلة لكان الناس يسكنون الشوارع بدل البيوت ويجلسون في المقاهي بدل العمل في مكاتبهم ومعاملهم.

ويتذكر صاحبنا على الفور كيف يعمل الانسان العربي في جو حار لا يطاق وهو مع ذلك يتعلق بارضه وشمسه وسمائه.. بينما يرى القوم يهربون الى ارض اخرى!؟.

حكاية الكلاب

ودنيا الكلاب دنيا خاصة. . . لها تقاليدها. . طعامها ولباسها الخاص. . وايضا مقابرها الخاصة. اما اعدادها فقد وصل الى تسعة ملايين كلب! . ورغم هذا فان الكلاب ممنوعة من دخول المطاعم ومحطات المترو والحدائق العامة والمقاهي . . لكنها مدللة في السيارات الفخمة!

ويتذكر صاحبنا انه وقع ذات مرة فريسة سوء الفهم بسبب كلب عنيد لم يطع امر سيدته: «فبينما كنت اتمشى على عادتي في شارع فيكتور هيغو سمعت هذه السيدة تصرخ وبقوة: تعال هنا!! تعال هنا!! ولم يكن في الشارع غيري. . تقربت منها قليلا وسالتها: هل انا المقصود؟ ولم اوفق بافهام هذه العجوز الشمطاء لاني كنت لم اتعلم بعد لغة القوم واصول مخاطبتهم؟

وصرخت مرة اخرى وثانية وثالثة ومكثت مشدودا لا ادري ما افعل؟ ثم صاحت مرة اخيرة! تعال هنا. . الى ان خرج كلب صغير من نوع «الكانيش» يحرك ذنبه معتذرا من هذا الحادث الطارىء الذي ادى به الى الاختفاء وراء الاشجار؟».

تململت. . تعجبت همست في نفسي قائلا: وهل يكلمون الكلاب بهذه الطريقة؟ يا ترى كيف يكلمون عباد الله؟

ومنذ ذلك اليوم وصاحبنا يحلو له التعرف على الكلاب وطرق وسائل الحديث معها وقرر متابعة اخبارها والدخول في عوالمها الخاصة ومحاكاتها في امور الحلال والحرام وحتى الحديث عن الكلاب العربية البائسة التي تفر عندما تشاهدنا وعلى بعد اميال؟

وقد عرف فيما بعد ان الكلاب في مدن الغرب . . كالانسان فهناك الغني وهناك البرجوازي وهناك الفقير . . وهناك الاشعث الاغبر يباع بثمن بخس وهناك النظيف الجميل الذي يباع بالاف الفرنكات . وعرف صاحبنا فيما بعد ان الكلاب التي تعيش في المناطق الغنية تشمئز لرؤ ية الكلاب التي تعيش في المناطق الفقيرة؟ فكلاب منطقة باريس السادسة عشر هي ارفع منزلة واكثر نظافة من كلاب باريس الثامنة عشر وربما تسألني عن سر تعدد باريس فاقول لك ان باريس قسمت الى عشرين دائرة اغناها واهمها الدائرة السادسة عشر والسابعة وتكثر فيها الكلاب الفاخرة اما اوسخها وافقرها فهي باريس الثامنة عشر ويكثر فيها العمال المهاجرين والاجانب؟؟

وفهم صاحبنا ان للكلاب طعاما خاصا تنتجه معامل خاصة ويحكي ان احد الطلاب اشترى علبة لحم بسعر زهيد وكان فرحا مسرورا لكنه اكتشف فيما بعد انها علبة مخصصة للكلاب! .

والاعلان والدعاية في التلفزيون وعلى صفحات الجرائد وفوق جدران باريس تدلنا على اهتمام الناس بالكلاب واصنافها وهناك محلات كثيرة ذات واجهات زجاجية حلوة تبيع الكلاب وباسعار مغايرة .

ولعل اغرب الاشياء التي خصصت للكلاب تلك المقابر النظيفة الجميلة . . وشاءت الصدف ان يموت كلب احد الصديقات فيذهب صاحبنا ليعزي الصديقة فوجد المقبرة مليئة بالاسماء والتواريخ ومملوءة بالورود والريحان وعلى بعد مسافة قريبة لمح سيدة تبكي كلبها ولما اقترب صاحبنا منها بدات السيدة العجوز تحكي قصتها مع هذا الكلب الذي عاشت معه اكثر من عشر سنوات متواصلة . . كان صديقها الذي لا تفارقه وجليسها الذي تكلمه باستمرار . وعندما شاهدتني اواسيها حزنها وأشاطرها عذابها قالت لم يبق لي انسان او حيوان استطيع الكلام معه! لقد مات زوجي في الحرب العالمية الثانية ولم أستطع ان اعيش مع انسان اخر وكانت الكلاب الوحيدة التي تساعدني على الخلاص من هذه العزلة القاتلة!؟ .

ومن ذلك الوقت عرف صاحبنا مزايا الكلاب التي تساعد على قتل جزء

كبير من العزلة النفسية والاجتماعية التي يعاني منها المجتمع الاوروبي.

ويبدو ان ظاهرة الكلاب في الغرب ظاهرة برجوازية اكثر من ان تكون ظاهرة انسانية وصاحبنا لا يتحدث عن هذه الامور جزافا.. انظر الى تلك الحسناء التي ترتدي معطفا من الفرو، هذه الحسناء لها ثلاثة كلاب وبالوان مختلفة وكلما خرجت وارتدت ملابسها الغالية التي تشتريها من كريستيان ديور وبيار كاردان تحرص على الخروج مع كلب يناسب الوانها.. ظاهرة مدهشة اليس كذلك؟؟؟

وبعض الذين تورطوا في تربية الكلاب يصرفون مبالغ طائلة لها...

هناك من يذهب اسبوعيا الى صالونات خاصة لتصفيف شعر الكلاب، وهناك من يشتري بعض ادوات التجميل والزينة لكلبه وآخر يحرص على فحص كلبه كل اول اربعاء من كل شهر؟؟

والمبالغ التي تصرف لهذه الكلاب لا تذهب هباء انها تأتي بنتائج طيبة!.. وفي الشوارع العامة والغابات كثيرا ما تكون الكلاب سببا لحادثة غرام تقع بين الشاب والشابة؟ وعن طريق الكلاب ايضا يتباهى القوم كثيرا فعندما يخرج احدهم مع كلب جميل ويلاحظ ان الناس قد حسدوه فانه يشعر بلذة كبيرة؟

لكن كثيرا ما تحدث المشادات الكلامية في الشوارع والمقاهي بسبب كلب كبير اعتدى على حرمات كلب صغير! ويبدأ العراك.. عراك الكلاب ولكنه ليس مثل عراك الديكة الذي لا ينتهي بسهولة.

ويقال ان الدولة ازعجتها ظاهرة الكلاب خاصة تلك الكلاب التي تبرز «فضلاتها» في الشوارع والساحات العامة والامر ليس سهلا لان اكثر المسؤولين في الغرب يمتلكون كلابا بانواع خاصة.

ولكن بلطف وحسن نية أصرت بلديات مدن الغرب تذكير الناس بهذه الظاهرة الوسخة التي تسيء الى سمعة المدينة وتترك عند السياح انطباعا سيئا.

وصاحبنا يؤاخذ القوم مغالاتهم في حب الكلاب وترك الانسان يعيش

في عذاباته وحيدا فريدا. . . هؤلاء القوم يقيمون الدنيا عندما يصاب احد الكلاب بأذى شديد ولكنهم ينسون ان مئات البيوت المنسية تحوي اناسا ينامون بشروط غير انسانية.

ينسون ان الانسان وحتى في وسط مدن الغرب يعاني الكثير بينما تعيش الكلاب في شروط «كلبية» افضل؟؟

... بُوبور

... والباريسون يحبون التجمع امام البنايات والمتاحف والأنصاب التاريخية التي شيدتها فرنسا على مر العصور.

... وصاحبنا كثيرا ما يطيب له الوقوف على مظاهر القوم... ربما لمعرفة اسرارهم.. وخلجات انفسهم والتوترات النفسية والاجتماعية التي تسببها المجتمعات الغربية لهم.

وباريس كثيرا ما تشعرك بهذه المظاهر اليومية التي يختلط فيها الرفض بالقبول.. والفرح بالحزن.. والضحك بالبكاء.. والجد بالهزل.

باريس تضعك فوق خشبة مسرح كبير يزهو بالرقص والغناء والتمثيل.. وفعاليات عفوية تفجر اسرار الناس وتمنحها هذا الدفء الجميل المتلون بتلاوين الحب والحياة.

وعند ساحة اكبر مركز ثقافي عرفته اوروبا «مركز بومبيدو» تتجلى المظاهر الباريسية على اشدها في وقت تتحول فيه الساحة الكبيرة الى مغامرة يومية يشترك فيها كل من هب ودب.. وكل من عرف كيف يرقص.. او يغني في الهواء الطلق.. وقل هو معرض انساني كبير.

هذه الساحة سرقت فعاليات «الحي اللاتيني».. وفعاليات حي «مونتمارت» وحي «سان جرمان».. وصارت اكبر مكان لاطلاق العنان الى الموهبة الباريسية التي طردت من المسارح الرسمية.. وصالونات النبلاء؟.
هذا المركز الذي احدثكم عنه عجيب الشكل.. وعجيب اللون.. وعجيب

النكهة.

وفي اللحظات الاولى التي وقعت عين صاحبنا عليه، عقدت الدهشة لسانه، وراح يتساءل عن سر هذا الهيكل الحديدي الذي يقترب بشكله الى بناء مصفاة النفط؟.. انه «بوبور»؟؟

الله.. هل اكتشفت باريس على حين غرة النفط؟ هكذا كان يتصور الامر.. لكنه رأى من بعيد يافطة تقول «٠٠ مركز جورج بومبيدو الثقافي».

ترى اية ثقافة هذه التي حبسوها في دائرة الاسلاك والاعمدة الحديدية..؟ الامر عجيب.. خصوصا وان اوروبا عودتنا على طراز خاص في بناء متاحفها ومراكزها الثقافية.. لا يهم.. كل شيء يتبدل في هذه الحياة وكل شيء يفقد طعمه؟

وعلى مدى خمس سنوات ظل صاحبنا يراقب تطورات المركز الثقافي هذا الذي وصل عدد زواره وفي اليوم الواحد الى اكثر من ثلاثين الف زائر.. واحيانا اكثر من ذلك، انه أمر مدهش للغاية.. وطبيعة الزيارات هي للتعرف على معالم الفن الهندسي المعماري.. لكن لماذا هذا التحول العجيب في بناء المراكز؟ وهل ان متاحف اللوفر وفرساي وشايو والاوبرا سوف تبنى على هذا الطراز في المستقبل وعندما تقترب لحظات الفناء الطبيعي؟

يقال ان الغرب شعر انه بحاجة الى تغيير في شكل وأسس مؤسساته الحضارية والثقافية.. ويقال ايضا ان البناء الجديد للمراكز الثقافية، يتماشى والتطور الحاصل في البنى الاجتماعية.. ثم هي مصالحة جديدة بين التكنولوجيا والثقافة.. اي بين الانسان والعلم المتطور؟.

حتى الانسان في الغرب بدا يشعر بتلك (الهوة) التي خلقها التسارع التكنولوجي المذهل والذي القى بظلاله على شمس الحياة؟.

ولكن هل ينتهي الحل على هذا النحو؟. اي تقديم زاد ثقافي.. وابداع فني على طبق شهي انجزته التكنولوجيا؟.. امور كثيرة بدات تطرح تساؤلات خطيرة.. وقد عالجها مؤتمر فرساي الاخير.. لكن الرياح تجري بما لا تشتهيه السفن.. لان التزاوج ما بين التكنولوجيا والثقافة لا يتم بهذه السهولة.

عذرا ايها العزيز . . ما اردت ان ادخلك في هذه المتاهات . . واريد تتمة حديثي معك عن هذا المركز الثقافي الكبير الذي تضافرت فيه العقول المعمارية الاوروبية، حيث اشترك في تصميمه وبنائه مجموعة من المهندسين المعماريين من فرنسا وايطاليا وبريطانيا وبلجيكا والمانيا. وهو يمثل عصارة الجهد الغربي في هذا المضمار. ستة طوابق معلقة في الهواء الطلق . . لا تستند الا على ركائز رفعت من خلالها بناء المركز على «طريقة الضغط» . . وتسألني ايها العزيز كيف يحدث هذا . . فاقول لك انه عصر التكنولوجيا!

وصاحبنا يحلو له تشبيه هذا المركز الثقافي بصحن صنع في هذه الايام والقيت فيه فواكه مجففة كتلك التي رسمها لنا الفنان العبقري سيزان.

ولا يدري لماذا يشعر في كل مرة يزور فيها هذا المركز الكبير بحالة رفض غير مرئية لهذا الكائن الجديد الذي ظل غريبا وسط بنايات باريس القديمة التي اشتهر فيها حي «بوبور».

ولم يكن صاحبنا بطل هذا الرفض . . اعوذ بالله . . فلا حق له بذلك . . انه مغترب يرى وينظر ويحلل الاشياء على «سليقته الخاصة» . . الرفض من الباريسيين والسياح الذين تجمهروا في الساحة الكبيرة ألتي يطل عليها المركز الكبير . . . بينما تركوا المركز وقاعاته العديدة!!

حلقات بشرية توزعت مثل حبات المسبحة . . وكل حلقة لها نشاطها الخاص . . وحركتها الخاصة . . ولونها الخاص وهي فرصة كبيرة لاظهار مفاتن الابداع الخاص . . والجنون الخاص جدا ايضا.

هذه الحلقات وهذا التجمع الانساني على غير موعد . . لكنه يمثل كل معاني وصور العالم الجميل بلا قيد. انظر الى ذلك الافريقي . . ظل يدق الطبول وبقوة . . وفي الجانب الاخر تتبرع فتاة جميلة بالرقص على دقات الطبول . . وينقص هذا المنظر اشجار الموز العالية . . وصيحات «طرزان» والفيلة الضخمة ؟

. . ثم هناك مهرج يشعل النار . . ويقذف عليها نفطا اجتره من فمه . .

تشتعل النار . . ويتصاعد اللهب الى الاعلى . . ويبدأ التصفيق .

. . وذلك الذي جلب معه اطفاله وراح يوزع عليهم العاب «كروباتيكيه» . . والويل للذي يسقط على صخيرات تلك الساحة؟

وهل تنسى منظر تلك العجوز التي راحت تهز جسدها الذابل بلا ايقاع فني؟ هكذا للعبث والنزهة وربما لجر انتباه الآخرين .

آه . . كم هو ضائع هذا الانسان الذي يحاول استعطاف الآخرين واشعارهم بوجوده . . انا موجود . . لا . . لا . . لا اصدق؟؟ . . اضربني حتى اشعر بذلك .

وصاحبنا تعب من رؤية هذه المظاهر اليومية في باريس رغم جمالها وعفويتها . . لانه يعرف انها تكشف عن الوجه الآخر لهذا الانسان التائه في المدن الكبيرة .

يصعد الى طوابق المركز الثقافي الكبير . . ويدخل قاعات الرسم لبيكاسو وماتيس وشاغال وسلفادور دالي . . يرى جنون وعظمة الفن . . ثم يهبط الى المكتبة الكبيرة التي ضمت آلاف الكتب التي تبحث في العلوم والتاريخ والحضارة . . وهناك الكثير من «الكتب العربية» . . وفي قاعة اخرى يتعلمون اللغات الاجنبية ومنها العربية «بشكل مباشر» . . وهناك الكثير من الابداع الانساني المتفرد . . لكن وكما يبدو فان هؤلاء الذين تجمعوا في ساحة المركز الكبير ظلوا يقولون . . لا تصدقوه «المركز» . . . وصدقونا .

باريس الثقافة

باريس هي حقا عاصمة الفن والثقافة . . عاصمة الضوء والجمال . . عاصمة اللون والحركة والحياة . وصاحبنا كثيرا ما يحار في اقتناء زاده الثقافي . . هل يذهب الى مسارح باريس الكبيرة . . «كوميدي فرانسيز» الشهير . . ام مسرح شاتيليه . . ام مسارح المدينة في سان جرمان ومونبرناس والاوبرا؟ . . ام هل يذهب الى صالات السينما . . ثم لماذا يحبس نفسه في هذه القاعات . . ألم تكن باريس بشوارعها ومقاهيها وساحاتها وحدائقها مسرحا كبيرا للحياة؟؟

يعترف صاحبنا ان باريس هي سينما الحياة يجد فيها فيلما يوميا يدور بلا انقطاع . . . ويكفي له ان يجلس في مقهى باريسية . . . وينظر الى الناس وحركة الاشياء . . كل شيء يتحرك بعفوية . . حديث الناس . . طريقة رفضهم . . طريقة حبهم . . عبثهم ولهوهم اليومي . . معارك الكلاب في الشوارع . . صراخ الكلوشار . . مسارح الهواء الطلق التي يجد فيها من يغني . . ومن يرقص . . ومن يعبر عن نفسه وعلى طريقته الخاصة .

هذه باريس تمنحنا زادا ثقافيا يوميا . . وهناك من يقودك الى ينابيع الثقافة والفنون . . هناك دليل المدينة «باري سكوب» و«الاوفيسيل» وغيرها من الطبعات الاسبوعية التي تدلنا على نشاطات باريس في المسرح والسينما والحياة .

ان باريس تشكل للمقيمين فيها اضافات ثقافية مستمرة وعلى الباريسي ان يتابع ويتحرك لينهل من زاد باريس الثقافي والفني .

وحتى الجاليات الاجنبية بنشاطاتها العديدة ومراكزها الثقافية تشكل

اضافات ملونة الى باريس الفن والثقافة . . . اما السواح فهم رحلة باريس في الصيف والشتاء .

وصاحبنا . . ولانه عربي يحمل في وجهه خارطة الوطن العربي . . . ظل يتابع نشاطات العرب . . او التي لها علاقة بذلك . . لكنه مع هذا ظل مشدودا الى روائع المعارض الفنية في القصر الكبير «كروند بالية» او الى جماليات رودان في النحت . . او الى لـوحـات اللوفـر الشهيـرة تلك التي رسمهـا دافيـد وديلاكروا . . وروبنسون .

وهو لم يكتف بهذا الزاد الثقافي . . بل راح يبحث عن منابعه الاصيلة .

كان يريد مقابلة اندريه مالرو . . هذا الكاتب والسياسي العظيم الذي مزج تجربته الكتابية بروح العمل والمفاجآت الجريئة .

اندريه مالرو وزير الثقافة في عهد ديغول . . كان اول مسؤول يفتـح المركز الثقافي الفرنسي في بغداد . . شديد الاهتمام بتاريخ العراق وحضارته الخالدة .

. . ولم يوفق صاحبنا بمقابلة مالرو لموته المبكـر لكنه نجـح في مقابلة اراغون . . هذا الشاعر الفرنسي الكبير الذي يختزل عصرا ثقافيا كاملا لفرنسا اليوم .

. . مرات ومرات ذهب الى بيته في شارع لافارين . . وبفضل السيدة «ماريا» خادمته الخاصة استطاع ان يعقد صداقة خاصة مع اراغون . . كان اراغون يحب الشعر العربي . . ويحب الاندلس . . وكثيرا ما انتصر للقضايا العربية وخاصة قضية العرب المركزية قضية فلسطين السليبة .

وفي بيت اراغون يحضر التاريخ الثقافي لفرنسا . . يرى صاحبنا لوحات سوريالية لسلفادور دالي وبيكاسو واخرى لبريتون وبراك . وكتب ومنحوتات اضافة الى روايات وكتب الشعر التي ألفها آراغون نفسه .

ومن احلى الايام . . ذاك اليوم الذي سمح فيه اراغون لصاحبنا برؤية غرفة الزا حبيبته التي كتب لها معظم قصائده؟ وقال صاحبنا لاراغون مرة . .

هل تتذكر الزا . . يا اراغون . . فكان جواب اراغون سريعا وملتهبا . . هي هنا . فلماذا اتذكرها . . اننا نتذكر الناس الذين يعيشون بعيدا عنا . . لكن الزا دائما معي ! !

وقال اراغون عن اول لقاء له مع الزا . . هي او أقتل نفسي !

وعندما مات اراغون في بداية عام ٨٣ ذهب صاحبنا الى بيته معزيا . . وفي ذلك اليوم تحولت باريس الى واحة من الحزن والاغتراب الكبير . . . ويتذكر صاحبنا انه حزن نفس الحزن يوم اغتيل المفكر العربي صلاح الدين البيطار في باريس .

لقد استطاع صاحبنا وبفضل اقامته الباريسية ان يقابل الكثير من القادة السياسيين مثل جاك شيراك وبيار موروا وميشيل جوبير وجان بول شوفنمان وريمون بار ويتحدث معهم احاديث صحفية ناجحة .

واستطاع كذلك ان يقابل بعض المستشرقين الفرنسيين الذين يتعاطفون مع العرب مثل جاك بيرك وروجيه غارودي وفنسان مونتاي وبيار روسي واندريه ميكل . وقد لمس من جاك بيرك حبا حقيقيا للعرب والاسلام ويتذكر ان اول لقاء له مع جاك بيرك كان في «الكوليج دي فرانس» وهي الجامعة التي يدرس فيها بيرك مادة الاجتماع العربي الاسلامي .

وباريس تكاد تكون مدينة عربية . . بنشاطات وفعاليات ومظاهرات عربية مستمرة . . اضافة الى عدد المجلات والصحف العربية التي تصدر في باريس . وكذلك عدد المثقفين المقيمين وبشكل دائم .

والحضور العربي ومنذ بداية السبعينات وعلى المستويين الثقافي والحضاري اصبح مألوفا في عاصمة الفن والثقافة . . فلا يكاد يمر شهر دون ان تشاهد معرضا عن الحضارة العربية الاسلامية . . او تنصت الى ندوة عن الحوار العربي - الاوروبي . . او تزور متحفا يقدم لك ابداعات العقل العربي على مر العصور .

واهم النشاطات التي شاهدها صاحبنا ذلك المعرض التاريخي المهم

الذي اقيم في متحف القصر الصغير في الشانزليزيه . . انه معرض عن الحضارة التونسية «من قرطاج الى القيروان» وقد افتتح بحضور محمد المزالي رئيس وزراء تونس وعمدة باريس الزعيم الديغولي جاك شيراك . . في هذا المعرض التاريخي الحضاري المهم اشارات كبيرة للمحتوى الانساني للحضارات العالمية . . وان اية حضارة قديمة او معاصرة لم تقم لوحدها بل هي نتاج انساني مشترك .

في قرطاج نشاهد علوم وآثار الفترة الرومانية . . وفي القيروان نطلع على عظمة الفن العربي الاسلامي . . وعلى المظاهر العلمية الاخرى التي جرت في عهد الاغالبة المسلمين .

هذا المعرض وحده اشارة واضحة «لحوار الحضارات» خصوصا وانه يفتتح في مركز حضاري مهم في باريس . . وحضور المثقفين العرب والفرنسيين والمساهمة في افتتاحه اشارة ثانية على اهمية الحوار العربي - الاوروبي ومن النشاطات العربية الأخرى، المشاركة الكبيرة في «المعرض العالمي للفن المعاصر» الذي اقيم في قاعة القصر الكبير قرب الشانزليزيه أيضاً .

وقد مثل النشاطات العربية «غاليري فارس» الذي احتل مساحة واسعة وقدم اعمالا فنية ناجحة على مستوى النتاج العالمي .

وفي قصر مسرح شايو المقابل لبرج ايفل . . شاهد صاحبنا مسرحية «حديث مع العامل الجزائري سعيد حمادي» التي كتبها الاديب المغربي طاهر بن جلون .

بكل وضوح وبساطة تتحدث المسرحية عن يوميات عامل جزائري قدم الى فرنسا بحثا عن العمل . . . ولكن مقابل عثوره على العمل يدفع الثمن غاليا . . فقد تغرب وترك زوجته واطفاله والادهى من ذلك صعوبة المواجهة اليومية لمجتمع لا يرحم .

والحديث المر هذا قد كتب بلغة شعرية مكثفة . . لغة حزينة . . ولكنها لغة واعية ومؤثرة وناقدة . اما المفارقة التي وقع فيها الكاتب هي تقديمه نموذجا للعامل «المثقف» الذي فقد وعيه وسيطر عليه الذهول والتعب وهو في حالة

بطالة مستمرة . . ولم يعد يذكر من حياته سوى ذلك التاريخ المشؤوم الذي حمل فيه على ظهر باخرة شقت عباب البحر لتصل الى ميناء مارسيليا حيث تبدأ مأساة الاغتراب والحزن والحيرة .

وكان المطلوب من الكاتب ان يقدم نموذجا حقيقيا للعامل المغترب ، وهو الذي تراه وترصده العين في مجتمعات الاستهلاك الرأسمالية . . انه العامل الذي تسيطر عليه «الامية» والجهل . . والمظهر الوسخ ، كما فات الكاتب البحث في جذور المشكلة . . فعالج ازمة العمال المهاجرين كنتيجة حاصلة على سطح المجتمعات الغربية . . ولم يدخل في جذور الازمة وبواعثها واسبابها . . ان العمال العرب المهاجرين الذين قدموا الى اوروبا وخاصة فرنسا في الخمسينات وقبلها وصلوا بناء على رغبة هذه الدول بسبب ظروف الحروب العالمية التي اشعلوها والتي ذهبت بخيرة عمالهم ورجالهم . . فاصبحت المعامل خاوية . . وكانت اوروبا على شفير ازمة جديدة لولا وجود العمال العرب الذين ساهموا غي انقاذ المصانع والمعامل الاوروبية .

ورغم كل هذه الاشارات السريعة . . فان المسرحية التي يقوم بأدوارها ممثلان فقط . . قد قربت صورة العذاب النفسي الذي يواجهه العرب وخاصة العمال منهم في مجتمعات الاغتراب .

ثم ماذا عن المظاهر الثقافية والفنية الاخرى في باريس . . وما هو جديد السينما الفرنسية .

رائعة فكتور هيغو «البؤساء» تم اخراجها من جديد على يد المخرج الفرنسي المعروف روبرت حسين ، ومحاولة روبرت حسين تبدو محاولة جديدة في اطارها واساليبها . . هي محاولة تزاوج المسرح بالسينما لقد استمر عرض الشريط «البؤساء» ، ولمدة ثلاث ساعات تقريبا والمخرج روبرت حسين يحاول ان يقدم فنا مزدوجاً يعتمد على ابداعات المسرح . . وتألقات «الفن السابع» السينما .

روبرت حسين الذي عرفناه ممثلا عالميا جادا . . اتجه في الفترة الاخيرة الى فن المسرح . . وقدم رواية «البؤساء» على شكل مسرحية اثارت ضجة كبيرة

على مسرح بورت فرساي . . لقد اهتم بالديكور وبالاساليب المسرحية الجديدة في الاخراج . . ويبدو ان هذا النجاح «المسرحي» دفعه لكي يدق باب الاخراج السينمائي . . ولكن عن طريق المسرح نفسه وليس عن طريق السينما!! انها محاولة خطرة «لمسرحة السينما»!؟

ان مشكلة السينما الفرنسية تبدو واضحة من خلال هذه المغامرة الجديدة . . وهي انها ما زالت ضعيفة جدا امام قوة وعظمة المسرح الفرنسي . . موليير وراسين كانا قد اسسا تاريخا عظيما للمسرح في فرنسا . . وقد استفاد من التراث المسرحي الكبير في اوروبا . . واعتاد الناس في فرنسا على مشاهدة روائع مسرحية خالدة . . في حين انهم وحتى هذا اليوم لم يصلوا بعد الى قوة الاخراج السينمائي . . وهم بذلك يعرفون ضعف وانكسار السينما الفرنسية امام السينما الايطالية والانجليزية لكن المسرح الفرنسي ظل محافظا على تراثه وعلى قوته وصموده بوجه المسرح الاوروبي، وظل محتفظا كذلك بجمهوره العريض الواسع .

هذه الهواجس جعلت الممثلين الفرنسيين يمثلون بطريقة مسرحية تماما كالذي يحصل في السينما العراقية مع الفارق طبعا .

على اية حال . . رغم هذه المحاولة الجديدة التي ضاعت بين ابداعات المسرح الفرنسي القديم والتقدم «التكنيكي» للسينما المعاصرة . . استطاع روبرت حسين ان يشد جمهوره وبقوة . . والفضل يعود اولا واخيرا الى اسم فيكتور هيغو اديب فرنسا الكبير .

واهم الملاحظات التي يمكن ان نسجلها هي رغبة الفرنسيين وخاصة الشباب . . وحتى الاطفال في مشاهدة رائعة هيغو . . انه الاديب العظيم الذي يدخل الى قلوب الناس، ولا عجب من ذلك فقد اكدت الاحصائيات الاخيرة ان روايات هيغو ما زالت الاكثر قراءة في فرنسا!؟

وعلى مستوى السينما ايضا . . شاهد صاحبنا فيلم «الاخ الكبير» الذي اخرجه فرنسيس جيرو قام بدور البطولة فيه جيرار ديبارديو والممثلة الجزائرية سعاد . . اثار هذا الفيلم من جديد مشكلة الوجود العربي في فرنسا .

ان هذا العمل الفني يعالج المشكلة كما هي . . في جزئياتها البسيطة . . وفي ملابساتها والغازها اليومية ، صحيح انه يعكس بعض المظاهر المؤسفة التي يلجأ اليها العرب . . ولكنه في النهاية يضع اللوم والمسؤولية على المجتمع الفرنسي نفسه . . وعلى المؤسسات الرسمية التي القيت على عاتقها مسؤولية هذه المشكلة القاهرة .

والحق يقال فان السينما الفرنسية قد عالجت في فترات قريبة وبجرأة قوية مشكلة العمال المهاجرين العرب في الداخل وطبيعة العلاقة التي تربطهم مع الفرنسيين . . كما ان هناك افلاما اخرى عالجت مشكلة الوجود الفرنسي في الخارج . . وخاصة في افريقيا السوداء ، ان فيلم «كودوتورشون» قد شرح لنا وبنقد لاذع تصرفات الفرنسيين في مستعمراتهم . . ومحاولتهم السيطرة على مقدرات البلدان المستعمرة . . هذه ظاهرة جديدة . . وموجة نقد عنيفة توجه الى المؤسسات الفرنسية في الداخل والخارج ومحاولة الحد من تصرفاتها اللاانسانية .

ويترك صاحبنا السينما ويذهب الى مسرح «الشانزليزيه» في شارع مونتاين . . ويشاهد ابداعات «باليه برلين» و«سمفونية فاغنر» وكذلك فعاليات «مارسيل مارسو» المشهور بمسرحة «الايمائي» . . والمسرح الايمائي . . او المسرح الصامت . . يعتمد على شخص واحد فقط يقوم بحركات بارعة تمثل وحدها صورة تشكيلية لحركة الناس والاشياء .

وكثيرا ما يشاهد الهواة في شوارع باريس وساحاتها ومقاهيها ممن يحاولون تقليد الفنان الفرنسي الكبير مارسيل مارسو ، ان هذا الفنان الكبير الذي بدأ يطرق ابواب الفن الصعب . . له من المشاهدين والمعجبين الكثير . . وفي مسرح الشانزليزيه الكبير يحتشد يوميا مئات المتفجرين لمشاهدة حركاته السريعة والخفيفة والمتقنة جدا .

كيف يمكن لك ان تتصور حركة «كاتبة الطابعة» بلا مؤثرات صوتية . . وبلا ضجيج . . ان مارسيل مارسو يقرب لك هذه الصورة ببراعة متناهية ، وهناك مشاهد عديدة حاكها هذا الفنان الصامت بدقة متناهية فريدا وحيدا . .

لكنك تشعر وكان العالم يتحرك معه .

وفي «الكوميدي فرنسيز» هناك فعاليات اخرى وفي مسرح «اوديون» وشاتليه فعاليات مماثلة . . وفي متحف «طوكيو» يشاهد ابداعات الفن العربي الاسلامي التي سرقها الغزاة الصليبيون ، اثناء غزواتهم .

باريس اليوم

ورغم الحركة الثقافية والفنية المستمرة فان صاحبنا يشعر من حين لآخر ان النـاس في مجتمعات استهـلاكيـة مثـل المجتمـع الفـرنسي يفتقـرون الى استمرارية الزاد الثقافي الاصيل . . وقد عبر اكثر الفرنسيين عن هذه الحالة من خلال صحف ومجلات واذاعات وتلفزيون العاصمة الفرنسية .

واطلع صاحبنا مؤخرا عن كتاب يتحدث عن الانحطاط الثقـافي انه كتاب «انحطاط ام نهضة» للكاتبين الفرنسيين هنري فيزين ودانيال مونتو . . يقول الكاتبان :

« . . ليس من السهولة تفسير هذا الذي يحدث في باريس فامام اجتياح حضارة الآلة للعالم الغربي اصبح الخيار صعبا بين انقاذ المدن التاريخية الكبيرة وبين تحديثها .

بين عام ٦٨ و ٧٥ خسرت باريس نصف مليون من سكانها في المقابل فان ٤٠٪ من الذين يعيشون في العاصمة الفرنسية هم من الاجانب الذين ينتمون الى ١٤٠٪ جنسية .

ويضيف الكتاب :

« . . الباريسيون يتحسسون بالمرارة حين يـدركون مـرحلة الانحطاط البـاريسية شملت العلم والثقـافة . . والفن . . وكـذلك الحـرف الباريسيـة التقليدية وانصراف اصحابها الى اعمال اكثر ربحا .

وحتى الجامعة العتيقة «السوربون» تواجـه وضعا علميـا وماديـا ينذر

المأساة . . لان مراكز عديدة للدراسات والابحاث قد توقفت بسبب الظروف المالية .

وعلل الكاتبان اسباب هذه الازمة لاشهر وألمع مدينة في العالم فينتهيان الى القول :

«ان ازمة باريس ازمة تاريخية متأصلة وليست بنت يومها . . لقد كانت باريس ومنذ القرون الوسطى مركزا خاصا وسلطة ملوك فرنسا الشهيرين . وحاول لويس الرابع عشر تغيير الانظار عن باريس بسبب مخاوفه من المشاكل . . وقد نقل مركز سلطته الى مدينة فرساي . . ورغم هذا الحدث التاريخي فان باريس ظلت تحتفظ بحيويتها ونشاطها الثقافي والسياسي . . ولكن منذ ذلك التاريخ واجهت باريس وضعا صعبا وانتشر فيها الفقر والبؤس مما دفع سكانها ليكونوا طلائع ثورة ١٨٧٩ .

ويدور صاحبنا اليوم في شوارع وساحات باريس ويجد ان البنايات الجديدة قد بدأت تحل محل البنايات القديمة التي اعطت لباريس طابعا خاصا وجميلا .

في الدائرة الثالثة عشر بدأت ناطحات السحاب . . وقد شهدت منطقة «مونبرناس» اعلى برج في المنطقة . . الامر الذي دعا الرئيس الفرنسي ، في حينهِ، جورج بومبيدو اصدار امر لمنع تزايد بناء الأبراج العالية على الطريقة الاميركية . . وحتى في الدائرة الخامسة عشر قرب برج ايفل شيدت ابراج بارتفاع مناسب وحي «غرونيل» قرب فندق «نيكو» قد شهد رغبة من العرب الاغنياء للسكن والاستقرار في العاصمة الفرنسية .

هذه هي باريس تعدو على ضفاف السين مثل فتاة حسناء تخاف زمن الشيخوخة .

ولباريس علاويها ومغازاتها واسواقها القديمة وفي اسواق باريس تجد الفلفل والبهار والبطنج والدارسين وحبة حلوة وكل الذي يخطر على بال امهاتنا العزيزات فلا حاجة لارسال هذه المنبهات الى اولادكن في الغربة انهم بحاجة الى نسمة هواء عليلة من ارض العرب الطاهرة .

وعلاوي باريس لها تقاليدها وطقوسها والوانها فهناك العلاوي الثابتة وهناك العلاوي المتحركة. والثابتة تلك التي اخذت لها اماكن في دكاكين كبيرة ومنظمة اما المتحركة فهي التي تنتصب اياما وسط الارصفة الباريسية العريضة ثم تختفي وتعود.

والعاملون في هذه الاسواق الشعبية يحملون بضائعهم من خضروات وفواكه ولحوم واسماك وملابس وزهور وايضا يجب الا انسى أن أقول ايضا انواع الجبنة الفرنسية وهذه العلاوي نسبيا ارخص من المحلات التجارية الكبيرة التي يطلقون عليها بريزينيك او مونوبري او غير ذلك.

وصاحبنا يطيب له الحديث هذه المرة عن اكبر العلاوي القديمة التي عرفتها باريس انها علاوي «الهال» القريبة من مركز بومبيدو الثقافي هذه العلاوي اختفت وقبل ثلاث سنوات من باريس تماما مثل ما اختفت «علاوي الشواكة» من بغداد؟ وبني على انقاضها مركز تجاري جديد حديث ومثير هو سوق الهال الزجاجي.

وفي المكان الجديد «الهال» والذي يعد اكبر مركز تجاري جديد في باريس، والذي صمم بشكل زجاجي مثير يجد الباريسيون الملابس والعطور والكتب والاسطوانات والحلي والمجوهرات وايضا المطاعم وصالات السينما.

ورغم ان باريس تعتبر مدينة ذات مركز واحد لكثرة الحركة والناس والمحلات التجارية في كل دوائرها ومناطقها فان منطقة شاتليه التي تجمع اليوم مركز بومبيدو الثقافي بوبور ومنطقة الهال بالاضافة الى مسرح المدينة وبناية بلدية باريس وبعض الكنائس والآثار المهمة تعتبر مركزا حيويا لباريس الجديدة.

وصاحبنا طاف كثيرا في هذا البيت الزجاجي وتطلع الى الهندسة المعمارية الزجاجية الجديدة التي انسجمت تماما مع مباني باريس القديمة التي شيدت منذ اكثر من مائة عام.

واذا نظرت من سماء باريس فان «الهال» يشبه بناية المطارات الحديثة وسط الاحياء القديمة والهال الذي اجتذب منذ ايامه الاولى آلاف الناس من

الباريسيين والسياح وسواهم يحتوي على مئات المحلات التجارية وعشرات المطاعم وايضا محلات «فناك» الشهيرة التي تبيع اجهزة الراديو والتلفزيون والمسجلات وأشرطة الفيديو والكتب والاسطوانات وفي هذه المخازن التي لها فروع كثيرة في باريس تجد اسطوانات عربية لاشهر المطربين العرب.

ويبدو ان محلات الهال لم تجذب الزبائن الذين يبحثون عن آخر موضات «ايف سان لوران» و«كريستيان ديور» فقط انما جذبت المئات من المتمردين الشباب الذين ينتظمون الى «منظمات فوضوية» مثل «البانك» وغيرها وممن لها نفس الجذور الهيبية الاولى.

وفي ساحة مركز الهال تشاهد كل يوم صباحا ومساء عشرات الفعاليات العفوية في الهواء الطلق وتشاهد عشرات الشباب وقد ارتدوا ملابس غريبة في اشكالها وفصالها وكأنهم ينتظرون الدخول إلى استوديوهات سينمائية.

ويبدو ان مستقبل هذه التنظيمات المرحلية وانطلاقتها سيكون من مركز الهال التجاري لان اروقة الهال العديدة دافئة وجميلة وليست هناك ثمة هواجس من الشتاء وبرده القارس ورغم العمر القصير لحركة الهال فان الحوادث كثرت فيه. ففي بداية هذا العام مات احد الكلوشار ركلا بالارجل؟؟

وقد سجلت دوائر البوليس الفرنسي كثيرا من حوادث السرقة والاعتداء بسبب الازمات الاقتصادية وارتفاع نسبة البطالة.

وصاحبنا كثيرا ما تقرب من مجموعات الشباب التي تعشعش في اروقة الهال الزجاجية فوجد هؤلاء من المدمنين على المخدرات ومن العاطلين عن العمل ومن الذين سحقتهم ماكنة المجتمع الغربية فراحوا ينظمون انفسهم في حلقات العبث والتمرد والضياع.

والغريب ان اكثر الفعاليات المجانية التي يلهي الشباب بها نفسه، والتي تستهوي الكثير من المتفرجين وعابري السبيل هي فعاليات تقوم على العنف وعلى تدمير الجسد انها محاولة للانتحار البطيء؟؟

حي الرسامين وحده في مونمارتر ظل مؤطرا بمسحة رومانسية حالمة اما

بقية الاحياء فقد كثرت فيها هذه الشعوذات الجديدة .

في ساحة الهال التي وضعت في وسطها انصاب غريبة ربما تنسجم وفعاليات الشباب الجديدة في هذه الساحة يمكن ان تجلس ساعات وساعات وانت تحدق وبدهشة كبيرة الى مجموعة من الشباب راحوا يداعبون اوتار الغيتار بجنون مذهل ووسط هذه الموسيقى والصخب يراهن بعضهم على رمي جسده وسط كومة من الزجاج المتكسر او الصعود حافيا فوق مجموعة من المسامير النابتة ، وسط لوحة خشبية عريضة .

هذه الظواهر اليومية الثابتة والتي لم يؤثر عليها برد الشتاء القارس وجدت لها المشجعين والمعجبين من السياح وغيرها .

ويقال انها اصبحت من مظاهر باريس السياحية ولم لا أليست السياحة تشكل اليوم موردا اقتصاديا مهما في دنيا العجائب!

من المظاهر الباريسيه الجديدة . . كثرة مطاعم «الهامبرغر» الأمريكية . . ومحلات بيع السلع الأمريكية . . خصوصا في شارع الشانزليزيه . . إنها حالة مؤسفة . . لم ينتبه أليها الفرنسيون؟!

في المقــهى

ومقاهي باريس ظاهرة فريدة في مدن الغرب، ويقال انك لو جمعت عدد المقاهي في لندن وروما وبون فانها سوف لا تعادل ابدا عدد المقاهي الباريسية.

في باريس بين مقهى وثانية تجد مقهى ثالثة.. واين ما وليت وجهك في الشوارع الكبيرة والصغيرة.. المعروفة وغير المعروفة.. في الساحات.. وحتى محطات المترو.. فانك ستجد مقهى جميلة.. نظيفة.. مريحة.. تؤطرها الواجهات الزجاجية والديكورات الرائعة.. وايضا تجد فيها طلباتك من الشاي والى القهوة.. ومن الحليب الى الشوكولاته.. ومن البيرة الى الويسكي.. ومن عصير البرتقال الى عصير الطماطم.. ولكنك لا تلعب «الدومينو ولا الطاولي» ولا تجد الحامض على طريقتك الخاصة.

وفي بعض المقاهي «تاباك» تجد السجائر والشخاط والعلكة والنستلة وبطاريات الراديو.. والساعات وبعض الهدايا الصغيرة.. ومن هذه المقاهي ايضا تشتري «سنوية» سيارتك وهي عبارة عن ورقة لاصقة نقش عليها رقم السنة الجديدة.. وتلصق هذه الورقة على الواجهة الزجاجية الامامية للسيارة.

ومقاهي باريس تستمر معك حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.. وهناك بعض المقاهي في الاحياء الكبيرة تسهر معك حتى الصباح.

ويتذكر صاحبنا مفاجآته الاولى في هذه المقاهي التي وجد فيها النساء اكثر من الرجال.. والقهوة اكثر من الشاي.. والماء ممنوعا على الزبائن..؟

في مقهى «لوديبار» كانت تجربته الاولى. لقد قيل له ان العراقين يرتادون

هذا المقهى التي تطل على حديقة «لوكسمبورغ» الشهيرة. . وذهب الى هناك فوجد بعض العراقيين والعرب موزعين همومهم بين الدراسة والسياسة والنساء. ولكن صاحبنا احتج كثيرا على سعر القهوة. . فهو وبعد ان كان يدفع عشرة فلوس ثمن الشاي في مقهى «القبطان» في العطيفية. . او مقاهي رأس الحواش في الاعظمية. . صار يدفع في باريس اضعاف اضعاف هذا السعر، ويتذكر انه كتب رسالة الى احد اصدقائه عن الظاهرة الجديدة. . وكان جواب الصديق نصيحة لشراء «تيرمس» يحفظ الشاي لساعات طويلة! . ومنذ ذلك اليوم ولسبب من موارده المالية المحدودة. . صار صاحبنا يبتعد كثيرا عن المقاهي الغالية ويذهب الى مقاهي الجامعة الرخيصة. رغم هذا فأن ظاهرة المقاهي الجميلة في باريس ظلت «تدغدغه». . وصار خبيرا بعدد المقاهي المشهورة.

وفي شارع سان جرمان يشاهد مقهى «دوفلور» وهي المقهى التي كانت تستقبل نخبة من ادباء فرنسا المعروفين مثل ابو لنير وجان كوكتو ولوي اراغون وفيليب سوبو وبريتون وبول ايلور، وكانت هذه المقهى والقريبة منها «دوماغو» قد شهدت نقاشات هؤلاء المبدعين في شؤون الأدب والسياسة والحرب ومستقبل اوروبا الغامض.

في مقاهي سان جرمان القديمة تشم رائحة السوريالية والسورياليين والدادائية والدادائيين. . وكل «التعليقات» و «الصرعات» التي افرزتها فترة ما بعد الحربين الكونيتين.

وحي سان جرمان الذي يعتبر من اكثر الاحياء الباريسية اصالة قد شهد احداثا تاريخية مدهشة. . ففي هذا الحي اختطف المناضل المغربي المهدي بن بركة. وفي هذا الشارع مر الجيش الالماني النازي. . وقصف وزارة الدفاع الفرنسية. . وما زالت اثار القصف موجودة على جدران الوزارة المذكورة.

ومقاهي شارع رين وهو الشارع الذي يربط حي مونبرناس بحي سان جرمان، تحتفظ هي الاخرى بذكريات الفنانين والشعراء، آراغون وعشيقته الزاكانا يترددان على هذه المقاهي. . كما ان الرسام الايطالي موديلياني. .

والاسباني خوان ميرو لهما من الذكريات الطويلة في هـذا الشارع البـاريسي الطويل.

وللعرب ايضا مقاهيهم المفضلة.. ولا ادري اين كان يجلس طه حسين مع زوجته سوزان وتوفيق الحكيم ورفاعة الطهطاوي. ولكن اغلب الظن ان المقاهي الصغيرة التي تقع عند باب جامعة السوربون الرئيسي كانت وما زالت مكانا للمثقفين العرب الذين اقاموا فترة طويلة في باريس.

وتعتبر مقهى «كلوني» وهي المقهى التي تقع عند تقاطع شارع سانت ميشيل بشارع سان جرمان من المقاهي المفضلة عند المثقفين العرب.

وحدث مرة ان التقى رهط من هؤلاء في هـذه المقهى المشهورة مثـل الشاعر عبد الوهاب البياتي و أدونيس ويحيى حقي وعبد المعطي حجازي وأمير أسكندر ومحمود العالم والفريد فرج وغيرهم.

ومن الشعراء العرب من كتب قصـائد عـديدة في مقـاهي باريس.. ومقهى «لوتريوم» التي تقع وسط شارع سان جرمان شهدت ولادة القصائد الاخيرة للشاعر سامي مهدي.

وفي الشانزليزيه كانت مقهى «لوباري» المكان المفضل للمرحوم صلاح الدين البيطار الذي كان يصدر جريدته الاسبوعية وقد اغتيل وهو يدافع عن حرية شعبه في سوريا العربية.

امـا عـرب المـال والنسـاء، فهم يفضلون مقهى «الفـوكيت» في الشانزليزيه.. وهي مقهى المواعيد! ومقهى الذكريات الخاصة.

وللعمال العرب مقاهيهم المنزوية البعيدة عن الاضواء والضجيج.. انها المقـاهي التي لا يصلها غيـرهم.. وتراهـا في حي «بلفيـل» او في حي «باربيس» تستمع معهم الى اغـاني الغربـة.. وتشرب معهم الشـاي المعطر بالنعناع والذي يذكرك بالوطن والاهل والاصدقاء.

ولكن ماذا عن الباريسية التي تعتبر من اشيـاء المقهى.. هي تدخـل بسرعة مع كلبها او بدونه.. تطلب قهوة او عصيرا.. ثم تنظر الى ساعتها..

وتخرج مسرعة. . او ربما تنتظر صديقا لها. . يأتي ثم يطبع على خدها قبلة هنا وهناك. . ويأخذها الى السينما او المسرح. . او يلعب معها لعبة «الفليبر» في نفس المقهى.

والنادل «الغارسون» يحب الزبائن الذين يجيئون ويذهبون بسرعة. . وهوكثيرا ما يتذمر من العرب الذين يمكثون ساعات وساعات طويلة في مقاهي الغربة. . ويتحدثون عن هموم السياسة. . والحرب وايضا عن اخر المغامرات النسوية!!.

مدن الاعلان

ومن الاشياء التي شغلت صاحبنا كثيرا . . ظاهرة الاعلان في باريس .
فهذا الاعلان «الملعون» يغزو الناس في بيوتهم . وفي مكاتبهم . وفي مدارسهم . وفي مطاعمهم ومقاهيهم . والاخطر من هذا وذاك فانه يغزوهم في عقولهم .

ويكفي لصاحبنا ان يخرج من بيته الى محطة المترو ليجد من يدس في يديه اعلانا . . واذا خرج من محطة اخرى يجد من تبتسم له وتودع في جيبه اعلانا . وحتى اذا دخل المقهى والمطعم فيجد الاعلانات امامه . . على الجدران وفي الساحات وعلى السيارات وفي كل مكان .

ويعود صاحبنا مثقلا بالاعلانات الصغيرة والكبيرة . . السياحية والتجارية . . المهمة وغير المهمة . . وما ان يفتح الباب حتى يجد اعلانات جديدة قد سبقته . . اعلانات الشركات والمؤسسات . . ومكاتب التصليح . . وايضا رسائل «الكونسيرج» .

وكثيرا ما تصله رسائل الضرائب والدعوات . . ورسائل المحلات التي كان قد اشترى منها يوما حاجة بسيطة .

ويتذكر صاحبنا ان هذه الاعلانات والرسائل كثيرا ما تسبب له الازعاجات . . خصوصا وانه ينتظر رسائل الوطن . . والوطن وحده . . وليس الدعاية والاعلان، في السنوات الاولى لرسائل الوطن طعم خاص . . وحنين جارف وكل رسالة من الاهل والاصدقاء تحمل شوقا خاصا . . وحبا فريدا . .

ولوعة ليس لها مثيل، انها رسائل الشوق والحياة.

وفي الليل يفتح صاحبنا التلفاز.. فاذا به امام اعلانات عن مستحضرات التجميل.. وغسيل الملابس.. وايضا عن معلبات القطط والكلاب وما شابه ذلك. ويقال ان لهذه الاعلانات جمهورا خاصا.. جمهور خدر بفعل الاعلان. كما ان الاعلان قد ترك نتائجه على الذين يستسلمون له.

ومرة شاهد صاحبنا جدال فرنسيتين في احدى المحلات التجارية الكبيرة حول شراء بعض الحاجات المنزلية.. ولا حظ ان الاولى تنصح الثانية بشراء سلعة دون غيرها لانها الاكثر دعاية في التلفزيون.

وتحاول شركات الاعلان التي تقف وراءها رؤوس اموال ضخمة التأثير على نجوم السينما.. فترى مثلا ممثلة كبيرة مثل كاترين دينوف او ايزابيل ادجاني او آن باريو يعملن لصالح الشركات الاعلانية.

والمرأة هي الموضوع الرئيسي في الاعلانات.. وتكاد تقتصر الملصقات على وجوه نسوية حلوة. وذهبت بعض المؤسسات الاعلانية الى التأكيد على حجتها وقوتها في اعطائه ثمرة الاعلان. فعمدت الى اخراج ملصق كبير ظهرت فيه شابة حسناء بملابس البحر تقول:

في الاسبوع القادم ساخلع «مافوق» وتقصد ما يستر النهدين.. وأنتظر الناس اسبوعا كاملا.. وفوجئوا بصورتها شبه عارية وهي تقول:

وفي الاسبوع الاخير: سأخلع «ماتحت» وتقصد لباسها الذي يستر عورتها!!

وفعلا تحققت «النبوءة».. وخلعت الحسناء ما يسترها وعادت مثل امها حواء!! لكن حواء ظلت تحتفظ بورقة التوت.

ويقال ان مسلسل الاعلان هذا قد احدث ضجة بين الناس لجراته وصلافته.. ويقال ايضا والله اعلم بالصواب ان دوائر المرور في العاصمة الفرنسية قد سجلت كثيرا من حوادث السير واصطدام السيارات.. بسبب تحديق السواق صوب هذه الملصقات.

ولاحظ صاحبنا ان هناك حربا اعلانية بين الشركات الكبرى للفوز بعرش امبراطورية «الاعلان» . . ومن هذه الحرب استخدام جيش جرار من علماء النفس والاساتذة والفنانين والمشاهير للتأكيد على فعالية الاعلان.

واكثر الاعلانات مدروسة دراسة نفسية عميقة . . ولم تترك شركات الاعلان الصهيونية هذه الفرصة النادرة للتأثير على معتقدات الناس، وكثيرا ما يشاهد صاحبنا في التلفزيون او السينما او المجلات اعلانات تسيء للعرب.

ومرة شاهد اعلان «لمرطبات» . . . عربي يخوض غمار الصحراء راكبا جمله . . وفي مثل هذا الجو اللاهب يتناول العربي «المرطب» بنهم واضح . . بينما ظلت زوجته تتبعه تدوس بارجلها الرمال الملتهبة.

وبسبب كثرة الاعلان في المدينة . . لجأت بعض الشركات الى استحداث اعلانات متحركة توقظ الناس الذين يمشون على غير هدى في الشوارع المكتظة . . وبعض الشركات استحدثت اعلانات اخرى تلصق في الارض لتجبر حتى الذين لا يحبذون رؤية الاشياء . . رؤية اعلاناتهم المسطورة.

لعبة الشهرة

وجنون الممثلة الاميركية الخائبة جين فوندا وسلوكها الصهيوني يفسر حالة من حالات استغلال الصهيونية العالمية لبعض مشاهير العالم.

فالصهيونية وبعد ان ثبتت مبدأ «عقدة الذنب» في نفوس وضمائر الاميركان والاوروبيين راحت تطالب بالثأر النفسي. . لذا فهي تحاول باستمرار شراء ذمم بعض مشاهير العالم في الفن والادب وحتى في السياسة. . وصورة جان بول سارتر بالامس ما زالت عالقة في الاذهان. . وصورة جين فوندا اليوم نراها من خلال زياراتها الوقحة للارض المحتلة التي تسيل دما. . وللبنان الذي زرع خرابا. هذه الزيارات الميدانية تعكس سيطرة الصهيونية العالمية على بعض مشاهير العالم وتحريكهم مثل دمى العرائس تماما. . في المسرح الذي تريد. . وفي الوقت الذي تشاء.

وصاحبنا يتعجب من هؤلاء الذين يشترون باسمائهم ثمنا قليلا وينسون التاريخ وحكمه.

ولكن كما يبدو فان مجتمع «الكاوبوي» عودنا الكثير. . فالذي حاول اغتيال الرئيس الاميركي الحالي ريغان قد اعترف انه ومن خلال هذا العمل كان يريد ان يسمع صوته للممثلة جودي فوستر التي كتب لها الكثير دون جواب منها. . وكانت طريقته تلك افضل الطرق لاثارة انتباهها ولكي يصبح مشهورا مثلها. ولو لم تكن جين فوندا ممثلة معروفة لعملت نفس الشيء مع شارلس برونسون!

وتسأل ايها العزيز وما الذي يدعو صاحبنا للحديث عن هذا كله؟ وما هي المناسبة؟ والحق ان المناسبات كثيرة للحديث عن هذا الموضوع . . فبريطانيا لم تنفعها شهرة السيطرة على جزر الفوكلاند؟ ولم تلتذ بقتل الآلاف من الارجنتينيين فراحت تحتفل احتفالا مثيرا بالمولود الجديد الذي انجبته الملكة الجديدة في وقت يموت فيه مئات الالوف من اطفال لبنان وفلسطين تحت وطأة السلاح الغربي؟؟

وحتى الممثلات الذكيات كثيرا ما يغرقن في مستنقع الشهرة؟ وربما تسأل لماذا اختارت الممثلة الايطالية صوفيا لورين العودة الى ايطاليا في وقت كان فيه نجوم العالم يحتفلون على شواطىء «الكوت دازور» في مدينة كان الفرنسية. ويقول العارفون في الامور الفنية ان صوفيا لورين اختارت هذا الوقت لكي تصبح حديث مهرجان كان السينمائي في وقت لم تقدم فيه شيئا لعام ١٩٨٢ وهكذا كانت صوفيا لورين في المهرجان دون ان تحضره؟

وترون الى اي طريق مسدود يصل فيه المشهور . . او المشهورة . . وعندما يورط نفسه في مطبات الشهرة الطائشة؟

النجمة الفرنسية المشهورة بريجيت باردو قررت ومنذ زمن طويل الاعتزال عن عالم الفن والتفرغ لحياتها الخاصة . . قرار خطير وجريء؟ ولكنها كما يبدو عادت للشهرة ليس من باب السينما فقط بل من ابواب الصحافة . . وحتى المجلات العارية وايضا من باب الحيوانات المظلومة!

وقد سمعت ايها العزيز كيف ان بريجيت باردو طيب الله ذكرها تعقد المؤتمرات وتكثر السفر وتطلق التصريحات المثيرة بحثا عن حل لانقاذ حيوان «الفقمة» الذي يتم استغلال جلدته لصنع الفرو والملابس الغالية.

تدافع بريجيت باردو بحرارة عن هذا الحيوان المسكين . . ولا ننسى انها ترتدي معطفا كبيرا صنع من جلد حيوان آخر؟؟

الامر ذو شجون ولله في خلقه شؤون ولكن ستقول معي ان هذه المسكينة لم تر في حياتها يوما اطفال المخيمات الفلسطينية؟ ولم ترَ في حياتها

اطفال افريقيا السوداء يموتون جوعا؟

والبحث عن الشهرة بأي ثمن كثيرا ما يؤدي الى نتائج سيئة كالتي تحدثنا عنها ولكن طموح الانسان في الشهرة لم يتوقف بعد.

والاعلان والترويج يصنعان من المجهولين مشهورين، والمشهورين مجهولين!!

وهناك شركات اعلانية عملاقة تعمل في الغرب لاسقاط الذين لا ترى فائدة منهم او المديح الزائف للذين لا وزن لهم بالحياة.

ومؤامرات «مافيا» الترويج كثيرة ضد الامة العربية فصاحبنا كثيرا ما يفاجأ بالمديح والحديث الكثير عن بعض الشخصيات العربية التي لا تصلح ان تكون واجهة عربية. بينما يبقى تحت الظل زعماء عرب لهم وزن سياسي كبير في الوطن العربي والحديث طويل عن هذه السياسة الأعلانية التي تجعل من العصفور فيلا.

ولكن دعونا من هؤلاء جميعا فقد اصبحت اهدافهم واغراضهم المشبوهة واضحة للبسطاء من الناس ولكن السؤال الذي يبقى عالقا في الاذهان.. الى متى يا ترى تتلاعب اجهزة الترويج بالناس؟

وهل اصبح مشاهير الترويج اجهزة خاصة كثيرا ما تدافع عن امور باطلة وتشترى بثمن بخس؟ وهكذا اذن جين فوندا تدافع عن دولة الصهاينة وتشترك في افلام تسيء للعرب.. وتشتري الشهرة بأي ثمن وعافانا الله من هذا المرض العضال.

مَع الباريسيين

. . . وكيف يمكن لصاحبنا الحكم على فرنسا والفرنسيين . . ؟ هل من خلال ما حملته الذاكرة عن عصر التنوير؟ ، أم من خلال الثورة الفرنسية وحروب نابليون؟ . . أم من خلال ما كتبه بلزاك وفلوبير وهوغو؟ . أم أخيرا من خلال مواقف الرئيس الفرنسي العظيم جنرال ديغول؟ .

ورغم هذه الذاكرة الخصبة التي يتحلى بها صاحبنا . . فقد تغيرت لديه الكثير من الافكار . . والكثير من المواقف بسبب من المعايشة اليومية . . والأختلاط . . والتقرب الى القوم والحديث معهم .

لقد كان يعتقد أن القوم على درجة كبيرة من الحضارة والثقافة . . وأن الحياة في فرنسا أرست أركانها على الزاد الحضاري والثقافي القديم وأن المجتمع الفرنسي وصل الى درجة الرقي العظيمة؟ .

ولهذا فأنه كان يتهيب الحديث في امور حضارية!! ويهرب من الخوض في احاديث ثقافية . . !! . . لكنه عرف فيما بعد أن القوم لا يولون اهتماما كبيرا للثقافة . . وإن الحضارة في مأزق حقيقي . . كما ان المظاهر اليومية تنذر بسقوط اجتماعي حقيقي!؟ ولهذا فقد فطن إلى ما كتبه «شبلنجر» في كتابه المهم «سقوط الحضارة الغربية» . . أو الى كتابات اديب فرنسا الكبير اندريه مالرو الذي قال يوما« . . ان الحضارة الغربية عرفت كيف تبني مصانعها ومعاملها . . لكنها لم تعرف المحافظة على كنائسها ومقابرها . . »

. . لقد لمس صاحبنا مظاهر هذا السقوط الكبير . . من خلال احتراق

النسيج الأجتماعي . . ومن خلال تفكك العائلة . . ومن خلال الغش والتزوير والرياء والكذب في الحياة اليومية .

إن القوم هنا ورغم الحرية الاجتماعية المتاحة لهم . . فأنهم مهوسون بقضايا الجنس . . يشاهدون أفلام الجنس الرخيصة . . ويكتبون عبارات جنسية مبتذله على الجدران . . وفي اروقة المترو . . وعلى الملصقات الكبيرة التي تحمل صور نساء عاريات او شبه عاريات .

وحتى الافلام السينمائية وصلت بها الجرأة الى عرض افلام تصور علاقات شاذة بين الرجال انفسهم ! ! وبين النساء إنفسهن ! ! .

أما افلام العنف التي يمثلها بلموندو . . أو آلان ديلون فهي الرائجة . . وهي التي تجذب أكبر عدد ممكن من الزبائن؟ ! . . هنا يتساءل المغترب وبمرارة . . هل هذه هي المجتمعات المتحضرة التي يتخذها «العالم الثالث» مثالا له؟ ؟ .

ويتذكر صاحبنا لقاءاته الاولى مع الفرنسيين . . وكان ذلك قبل ما يقارب عشر سنوات في مطار «أورلي» . . يتذكر انه قد حفظ عن ظهر قلب بعض الكلمات الفرنسية من كتاب . . «تعلم الفرنسية خلال اسبوع» ! ! . . وحاول ان يجرب حظه مع القوم وسأل أحدهم عن محطة «المترو» القريبة التي تصله الى مركز المدينة . . وكان ان «عفط» له . . ! ؟ ؟ وظن صاحبنا ان هذا الفرنسي لا يجيد الحديث مع الغرباء . . وأنه معتوه . . وغير متحضر . . وإلا كيف يتصرف على هذا النحو . . ؟ ؟ .

وتركه في الحال . . وأتجه صوب سيدة أخرى . . وردد على مسامعها نفس السؤال . . لكن صاحبنا فوجيء بنفس «الحركة» وبنفس الجواب ! ؟ ؟ .

وتمضي الأيام . . وتليها الشهور . . وعرف فيها بعد أن القوم معتادون على مثل هذه الاجابات السريعه . . وبمثل تلك الطريقة «الخاصة» ! .

وحاول صاحبنا وبألحاح التعرف اكثر على التكوين النفساني والاجتماعي والتاريخي للشخصية الفرنسية . . وبعد سنوات حافلة بالاختلاط

والتجارب الكبيرة . . كتب يقول :

. . والفرنسي «الباريسي خصوصا» عصبي المزاج . . لا يهدأ له بال ولا خاطر . . إنه ولو ملك الدنيا كلها . . فأنه يتشكى من صعوبة الحياة . . وغلاء الأسعار . . وندرة السلع الاستهلاكية . . هكذا هو متذمر ابدا طوال العمر . يملك كل وسائل الراحة . . يسافر كل عام . . يأكل وينام . . ويلبس كما يحب . . له بيت . . وعنده سيارة . . له حساب في البنك . . وله زوجة . . وعشيقة . . وحبيبة . . وما «بينهن» . . لكنه رغم هذا وذاك يتهم العرب بعشق «الحريم»!! .

وإن صادف وان امضى نهاره دون تناول وجبة جيدة من الغذاء الطازج فتلك المصيبة . . والفرنسي حريص على اعداد المائدة بشكل جيد . . وهو فنان في حاجات المطبخ والمطابخ . . ولعل أغلب الأحاديث التي تجري بين الفرنسيين . . تلك التي لها علاقة بعشاء البارحة و«تقليعات» مطاعم باريس الفاخرة .

وليس مطعم «مكسيم» أفضل المطاعم رغم شهرته . . لان باريس تزدحم فيها المطاعم الفاخرة والمؤطرة بديكورات جميلة . تماما مثلما تزدحم بالمقاهي الكثيرة .

والمائدة الفرنسية تقدم لك سلسلة من الوجبات الصغيرة والكبيرة . . وحسب «الطقوس» الباريسية عليك أن تمضي ثلاث ساعات كاملة لكي تنتهي من الأكل .

هناك المشهيات من المشروبات . . والمشهيات من المأكولات . . ثم المقدمات . . تليها الوجبة الرئيسية . . ثم وجبة ثانوية . . تتخللها تناول زجاجات من النبيذ الفرنسي الجيد تتلاءم ونوع وكمية وجبة الطعام المعدة . . وأياك . . أياك تقديم النبيذ الاحمر مع وجبة السمك . . فهناك النبيذ الابيض الذي يصلح للأسماك !؟ .

وختام المائدة الفرنسية هناك الفاكهة والحلوى . . وتظل الجبنة الفرنسية

خير ختام لهذه المائدة الكبيرة. . وحذار من حرمان الفرنسي من تناول الجبنة الفرنسية!؟.

ويقال انك اذا كنت بحاجة الى فرنسي. . فالافضل ان تقصده بعد ان يكون قد انتهى من تناول طعامه المفضل. . وبعد ان أنتعش جيدا بالنبيذ الأحمر القادم من مزارع الكروم الشهيرة.

والغريب ان صاحبنا. . وكلما تذكر هذه «المائدة» المعقدة واصولها. . تذكر على الفور عقد اللغة الفرنسية وتصريف افعالها. . فهناك الحاضر. . والحاضر القريب. . والبعيد. . وهناك الماضي القريب. . والماضي البعيد. . والماضي البسيط. . والماضي المعقد. . وهناك المستقبل قريبه وبعيده ومؤجله. . والتام منه!!.

والفرنسيون عموما لا يمكن أن يطلق عليهم بأنهم «اجتماعيون». . فالفرنسي يحب حياة «الانفراد» والوحدانية. . خوفا من سلب حريته!؟.

ونرى هذه الحالة موجودة فيما بينهم. . ويمكن ان تعيش سنوات طويلة في عمارة كبيرة دون أن تعثر على صديق. . أو صديقة. . أو عائلة تدعوك لزيارتها. .

وأفضل ما في الأمر أن تجد من يقول لك «بونجور» صباح الخير في المصعد. . أو في دهاليز البناية.

ولو حاولت عبثا التعرف على القوم لواجهت مصاعب جمة. . وعقبات كثيرة.

ويتذكر صاحبنا أنه غامر ذات مرة وطرق باب الجيران. . طالبا شيئا من الملح!؟. . والحقيقة ان القوم اعطوه ما اراد. . لكنه عرف فيما بعد أنهم لا يحبذون التعامل بمثل هذه الطريقة «الساذجة». ومنذ تلك التجربة تعلم صاحبنا الكثير وعرف ان الفرنسي لا يحب أن تفسد عليه خلوته. . ولا يحب أن يطلع أحد على شؤونه وحياته الخاصة.

ولو شاء لك وان سكنت بناية فرنسية. . فلا تنتظر منهم دعوة. . أو

وليمة.. ولا حتى أمسية للتعارف.. ولكن إذ صادف وقد رفعت صوت المذياع بعد العاشرة ليلا.. وأنت في يومك الاول.. فأن اصوات العويل والتهديد ستصلك فورا.. «وعد الى بلادك.. أيها الاجنبي».

ومن الصعب ان تحكم على غالبية الفرنسيين بالعنصرية.. وهم يستقبلون هذا العدد الكبير من الاجانب «اربعة ملايين» علما ان اكثر الاجانب لا يحترمون تقاليد وعادات أهل البلاد.. ويتصرفون تصرفات شنيعة ضد الفرنسيين!؟.

ومن الملاحظات التي سجلها صاحبنا على الفرنسيين حبهم للحياة.. وتنظيمهم للوقت ومحاولة الاستفادة منه بقدر المستطاع.. ويرى عطلة نهاية الاسبوع مشبعة بالنشاطات والنزهة في الحدائق.. وزيارة المعارض الفنية والثقافية.. ومشاهدة المسرح أو السينما.

وبحق فأن الفرنسيين أصحاب ذوق رفيع في المأكل والمشرب.. ويمتازون بحس مرهف في اختيار اللون.. وتنظيم البيت.. ومحلات البيع التي تمتاز بعرضها الجميل وبتناسق مدهش للألوان.

ومن الحقائق الثابتة.. وصف الفرنسي بالحيوية والنشاط والذكاء. وعدم التدخل في شؤون الآخرين.. أو مراقبة ما يفعله الأخرون. ومن الأشياء التي أدهشت صاحبنا تفاصيل علاقة الرجل بالمرأة. فهي علاقة مساواة.. فالمرأة الفرنسية معروفة بجرأتها وحيويتها.. وأيضا «بشراستها» فهي مثل الرجل صاحبة قرار في اختيار الزوج.. وأختيار العمل.. وأختيار العشيق.. تماما مثل الذي يفعله الرجل.

ويمتاز الفرنسيون كغيرهم من الغربيين بحالات «الرقي الاجتماعية».. وتجاوز بعض الحالات الاجتماعية التي تسبب كثيرا من المشاكل اليومية. وكثيرا ما تحل المشاكل الزوجية بتؤدة وبصيره خصوصا في حالات «الخيانة» الزوجية.. فليس هناك من يقتل «زوجته غسلا للعار»!؟.

ويعترف صاحبنا أنه يتحدث عن طباع الفرنسيين من خلال باريس

وحدها . . لان باريس ليست عاصمة فرنسا فقط . . وإنما مركزها الحضاري والثقافي والصناعي والتجاري .

وهناك من المدن الفرنسية التي تجد فيها علاقات انسانية اكثر حرارة مثل مدن مقاطعة «بروتان» رين ونانت وسانت مالـو . . وكذلـك مدن الجنـوب الفرنسي . . ومدينة «ليل» في الشمال التي يتصف اهلها بالادب ودماثة الخلق .

وما يهم الاجانب هنا . . هو الزاوية الاجتماعية . . والاجانب يعيبون على الفرنسيين برودتهم وعزلتهم وابتعادهم . . ولو سألت أيا كان من هؤلاء الأجانب سواء كـان عربيـا أو أمريكيـا . . أسبانيـا أو بولـونيا . . هـل تحب الفرنسيين لكان جوابه «أحب فرنسا» أحب باريس . . مدينة الحياة . . مدينة الحيوية والتجديد المستمر . . إنها مدينة الجميع . . تمنح كل فـرد حريتـه . . وعيشته على طريقته الخاصة . . وهذا هو سر تعلق الناس بها .

عُد الى بلادك

والعرب في فرنسا يشكلون اكبر الجاليات الاجنبية. معظمهم من ابناء المغرب العربي.. ويقال انهم بلغوا ما يقارب المليونين والنصف مليون نسمة!! واكثرهم قد حصلوا على الجنسية الفرنسية ولهم نفس «الحقوق» والواجبات.. هكذا يشاع.. وصاحبنا كثيرا ما يؤلمه منظر العربي في الغربة فالقليل القليل من العرب اسعفه الحظ وعاش حياة مرفهة.. فالغالبية الكبرى تعيش في ظروف اجتماعية ونفسية لا يحسد عليها ابدا.

وهؤلاء وبسبب من العزلة الاجتماعية التي يعانون منها.. وبسبب من القهر الاجتماعي الذي يتحملوه اصبحت لهم مقاهيهم الخاصة.. ومحلاتهم الخاصة.. ومطاعمهم الخاصة.

وفي بعض الضواحي الباريسية هناك مناطق عربية مائة بالمائة.. لا يصلها ولا يسكن فيها الا الناطقين بالضاد. وفي منطقة «بل فيل» مثلا تجد المقاهي العربية التي تنبعث منها اصوات الاغاني العربية فريد الاطرش وعبد الحليم حافظ وام كلثوم.. وايضا الموسيقى الفولكلورية للمغرب العربي، وفي هذا الحي يمكن العثور على احدث (الاسطوانات والكاسيتات).. وعلى اللحوم الحيوانية التي تذبح على الطريقة الاسلامية!! ويشاهد صاحبنا على باب احد القصابين العرب لافتة طريفة تقول: «هنا نبيع الحام حلال»..!! وهكذا تبدلت كلمة «لحوم» الى «الحام»! ولغة المغتربين العرب صارت لغة خاصة فهي مزيج من الكلمات العامية المغربية والكلمات الفرنسية.

وتدور العيون ويلتفت صاحبنا الى الوراء قليلا فيجد مقاهي عربية منتشرة هنا وهناك.. ويجد محلات لبيع الملابس.. واخرى للحاجيات المنزلية.. والفواكه والخضروات. سوق فلكلوري جميل تختلط فيه الاصوات العربية بروائح «المشوي» واكلة «الكسكوس» المشهورة.

وفي مناطق «بارباس» و«بيغال» تجد العرب بكثافة والسبب ان هذه المناطق السكنية هي ارخص مناطق باريس خصوصاً في الدائرتين الثامنة عشر والتاسعة عشر. في هذه المناطق تجد العرب يعيشون حياتهم البسيطة الخالية من النشاطات الثقافية والفنية.. الخالية من كل الاشياء التي تشدهم للوطن فالعلاقة بين هؤلاء وبين اوطانهم قد ضعفت كثيرا.. واكثرهم يجهلون الكثير من المعلومات الاساسية عن وطنهم العربي، لكنهم لا ينسون ابدا ان الصهيونية تمزق هذا الوطن وتشرد اخوة لهم في فلسطين ولبنان.

ورغم العدد الكبير من العرب في فرنسا. فان الاهتمامات بهم بسيطة وساذجة جدا. فهناك بعض البرامج الترفيهية. كبرنامج «موزائيك» الذي يبث كل يوم احد من التلفزيون الفرنسي.. ومن حين لآخر تنظم بعض المعارض والندوات والحفلات.

وربما تكون هناك اهتمامات عربية خاصة.. كاهتمام الودادية الجزائرية بالعمال الجزائريين.. واهتمام السفارات العربية برعاياها.. لكن الصلة العربية مقطوعة تماما!

ومن المظاهر العربية الاخرى منظر الطلاب العرب الذين يدرسون في جامعات اوروبا.. ففي فرنسا هناك عدد كبير من الطلبة العرب وحالتهم افضل نسبيا من حالة العمال المهاجرين بسبب من الوعي الذي يتحلون به.. والوضع المادي النسبي الذي يساعدهم على اقتحام الحياة. ولكن الانقسامات السياسية في الوطن العربي القت بظلالها على الطلبة العرب. وانعكست على نشاطاتهم.. كما ان الوضع العربي الممزق قد اوجد حالة من اليأس في صفوفهم.

وبعض الطلبة العرب يعيشون في ظروف صعبة قريبة لظروف العمال

العرب. . ومعظم هؤلاء وصلوا للدراسة على نفقتهم الشخصية وعليهم ان يوفقوا بين العمل والدراسة في وقت واحد. . وتلك هي المشكلة الحقيقية.

وفي المطاعم الطلابية الخاصة يشعر المرء بحقيقة الحياة المرة التي يتحملها الطلبة الذين انقطعت عنهم المساعدات المالية. فهؤلاء يتوسولون الآخرين للحصول على ثمن بطاقة المطعم الجامعي! وهكذا يشاهد صاحبنا حالة العرب في الغربة. . منها المؤلم والقاسي وهو كثير جدا. . ومنها المفرح الذي يضيع في مرارة الذكريات المؤلمة. او اليس من المؤلم ان تجد قسما من العرب قد ضلوا الطريق وسلخوا عنهم جلودهم وقلوبهم العربية!. . هناك الكثير منهم يعيشون في ظل هذه الصورة المأساوية. . فكيف يمكن ان تولد الثقة؟؟

في هذه الايام وبسبب الظروف الصعبة التي يمر بها العرب. . وبدل ان تفرح برؤية العربي امامك في الشارع او في مقهى الغربة. . تصعر خدك له. . وتحاول الهروب منه. . حالة مؤسفة وخطيرة.

. . وليست هناك دولة على وجه الخليقة يسكن فيها عدد كبير من العرب مثل فرنسا. . ولكن السؤال ليس هنا. السؤال هو كيف يعيشون. . وكيف تفرض عليهم الواجبات. . ثم اين هي حقوقهم؟؟

«. . وتقول آخر احصائية اصدرتها وزارة الداخلية الفرنسية ان ٤٢٢٣٩٢٨ مواطن اجنبي من ١٢٢ دولة يعيشون في فرنسا بشكل دائم. . ويشكلون ثمانية في المائة من عدد سكانها الكلي وذلك في ٣١ كانون الاول ١٩٨١.

وتتابع وزارة الداخلية الفرنسية معلقة:

«وعليه يكون السكان الاجانب الذين يعيشون في فرنسا قد تضاعفوا خلال ٢٥ عاما حيث كان عددهم عام ١٩٦٢ «٢٠١٢٣٥٢» شخصا.

واشارت الوزارة الى ان السياح المقيمين في فرنسا بصفة مؤقتة. . وكذلك الاشخاص الذين يقيمون بطريق غير قانوني لا تشملهم هذه الاحصاءات.

وتصنف وزارة الداخلية الفرنسية الاجانب من الشكل التالي:

«. . ٨١٦٨٧٣ جزائري و ٦٢٨٢٥٨ مواطن من دول المجموعة الاوروبية و ١١٥٠١١ مواطن من البلدان الافريقية ويأتي البرتغاليون في اول القائمة «٤٥٢٤٣٨» كأكثر الاجانب ثم الجزائريون والمغاربة بحدود «٤٤٢٧٢» والايطاليون «٤٥٢٠٣٥» واخيرا الاسبان «٤١٢٥٤٢»».

وفكر معي قليلا ايها العزيز في هذه الامواج البشرية التي تعيش على ارض غير ارضها . . ووطن غير وطنها!!

ترى كيف يعيشون؟ . . وماذا يأكلون . . وما هو مستقبلهم . . ما هو مستقبل اطفالهم؟؟

اسئلة كثيرة . . وكثيرة جدا تتزاحم خصوصا وان العمال العرب هم وحدهم الذين يتحملون اقصى درجات الاغتراب والعزلة.

فهم وبسبب اختلاف الدين والتقاليد والعادات صعب عليهم التأقلم في مجتمعات الغرب . . وهم يحاولون عبثا التوفيق بين ما يحبونه ويريدونه . . وبين ما هو مفروض عليهم قسرا!

وصاحبنا كثيرا ما يتابع اخبار العمال المهاجرين الذين يسهرون على اقتصاد الغرب ويحمونه من التدهور والازمات. في مصانع السيارات الكبيرة مثل رينو . وستروين . . وتالبو . . تجد النسبة الكبيرة جدا من الايدي العاملة هي من العرب . . يعيشون ظروفا اجتماعية وسياسية واقتصادية قاهرة . . ولعل خطورة الامر تكمن في ذلك الاستغلال اللامشروع للايدي العاملة العربية في المغرب.

ان اللعبة السياسية والنقابية قد تركت آثارها واسبابها عن العمال العرب . . فالنقابات السياسية الكبيرة سواء تلك التي تخضع لاهواء اليسار . . او اليمين تحاول من حين لآخر استغلال اصوات العرب في الانتخابات خصوصا وان القانون يسمح للعمال العرب لانتخاب ممثليهم.

والمأزق الخطير الذي يقع فيه العمال العرب وباستمرار هو انهم اذا

صوتوا لصالح النقابات اليمينية. . فان اوساط اليسار تتوعدهم شرا. . !!

. . واذا كان تصويتهم لصالح اليسار فان المسؤولين في نقابات اليمين يضمرون لهم الويل والثبور!؟

اضافة الى هذا كله يحاولون اذكاء روح العداء والعنصرية ضد العمال العرب في حين وكما رأينا انهم ضحايا الاستغلال السياسي. . والقمع العنصري، وانهم مضطرون لاتخاذ هذا الموقف. . او ذاك خوفا من الطرد المجاني.

. . والغريب ان الدول العربية المعنية، التي لها نسبة كبيرة من لعمال العرب في فرنسا لا تحرك ساكنا. . ولا تتدخل وكأن الامر لا يعنيها ابدا!؟

ترى من يدافع عن العامل العربي؟!

ويعترف صاحبنا انه كلما شرع في الكتابة عن العمال العرب المهاجرين فان صدره يضيق. . ولسانه لا ينطلق ابدا!!

وصورة العامل العربي في المهجر. . تكشف الوجه البشع للنظام الرأسمالي. . وتدلنا على زوايا البؤس الانساني في الغرب.

انظروا اليه مليا. . حدقوا في وجهه. . تطلعوا في ملابسه. . تلمسوا تجاعيده. . وتقربوا اليه اكثر. . نعم اكثر فاكثر. . وانظروا مرة اخيرة الى هذا الانسان. . الشاهد على مأساة الاغتراب والعزلة الابدية.

ستجدون فيه الموت في الحياة. . نعم الموت في الاحساس. . والموت في اللذة. . والموت في المجتمع.

في الصباحات المثقلة بهموم الباريسيين. . حيث الحانات والساحات والشوارع المليئة ببقايا اللهو الباريسي. . وبقايا العبث (الحضاري) في مثل هذه الصباحات. . لا شيء يتحرك. . لا شيء يستيقظ. . الا هو موزعا قواه لحملة براميل القمامة.

اوساخ باريس من نصيب هذا البائس الذي تحول بين عشية وضحاها

من انسان ثوري انتصر على دولة استعمارية واجبرها لكي تعترف به . . الى عامل مهاجر في اراضيها . . يلتقط اوساخ مدنهم . . بينما هم نيام يتمتعون في حياتهم صباح مساء!

وهذا المخلوق البائس الذين يطلقون عليه القاب الاستهزاء مثل (بونيول) بيكون. راتون. لا يفكرون فيه الا في حالات (الاضراب) حيث يفاجأ القوم بانتفاضة سلمية تجد علاماتها فوق القمامة المكدسة في الشوارع والساحات . . . وامام البيوت.

وصاحبنا يعرف ان القوم لا يحبون الاجانب . . ولا يركنون اليهم . . وكثيرا ما يتضايقون من وجودهم في المعامل والمقاهي والمطاعم واماكن الفراغ واللهو!؟

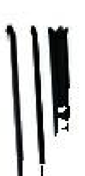
وهؤلاء ايها العزيز ينسون انهم يملأون المدن والبلدان . . وفي اقطار المغرب العربي يعيشون حياة مرفهة . . ويمتلكون الاراضي والقصور . . والشركات والمعامل ويذهبون ويسافرون في كل حرية واحترام . . هؤلاء ايها العزيز يتصورون انهم في عالم خاص مسؤولون عنه . . وهم الذين يحركونه وكيفما يشاؤون . . !؟

ويتناسون ايضا ان باريس الجميلة لم تكن من صنعهم وحدهم . . فالاجانب الذين عاشوا في هذه المدينة العالمية قد اضافوا اليها الشيء الكثير وطبعوها بطابع عالمي انساني.

وفي البناء هناك من ساهم . . وفي الادب والفن من ابدع . . وهل تنسى باريس الاسكندر الثالث وكاترين ديميسيس . . وبيكاسو وخوان ميرو . . وميشيل بيكولي وورومي شانديدر وعمر الشريف. وهل تنسى باريس الذين دافعوا عن تراثها وحضارتها من العرب ايام الاحتلال النازي؟؟

وصاحبنا يعرف الكثير . الكثير من هذه الامثلة لكنهم ساهون لاهون لا يعرفون من الاجانب الذين يعيشون معهم الا السوء والعورات!!

ثم هل يعرفون كيف يعيش العامل المهاجر مع عائلته؟؟ . . هل يعرفون



وهم الذين يعيشون في بيوت كبيرة . . ان هذا العامل المسكين يعيش مع زوجته واطفاله في غرفة صغيرة لا تتسع لشخص واحد؟؟

هل يتصورون وهم الذين يعصرون الوقت عصرا . . ان هذا البائس لا يعرف من وقته سوى المعمل والمصنع والاشغال العامة؟؟ . . ولا يعرف المسرح ولا السينما ولا العطلة (الفاكانس) التي يتمتعون فيها كل عام . ويتساءل . . لماذا يطردون هؤلاء حتى النظرات البريئة؟ . . لماذا يهربون؟ . . لماذا يضعوننا في هذه العزلة؟ لماذا لنا مقاهينا الخاصة . . ومحلاتنا الخاصة . . وجلساتنا الخاصة .

والعامل المغترب لا ينسى ابدا ان له وفي كل عام ضريبة يدفعها . . ضريبة صعبة . . يشعر معها انه مطرود . . مطرود . . ففي كل عام عليه ان يجدد اوراق اقامته . . ويثبت بالوثائق والسندات انه ما زال مقيما في هذا البلد بنزاهة واخلاص وصبر على المكروهات وتصوروا مع صاحبنا المشهد المأساوي الكبير . . في الصباح يأخذ طريقه الى مراكز الاقامة . . وينتظر مع الذين ينتظرون في طابور طويل . . وربما لا يجد من يناديه في نفس اليوم . . وعليه ان يعود في اليوم الثاني . . او الثالث . . او الرابع . . من يدري!؟

والى هنا والمشكلة لم تبدأ بعد . . ولم تبدأ فصول الخوف بعد . . ينادون عليه . . وبارتباك وخوف يذهب الى مصدر الصوت . . فيطلبون منه الانتظار . . والانتظار ساعات . . وساعات!!

وصاحبنا الذي يشهد فصول الخوف هذه كل عام . . يتذكر جيدا كيف يعيش المغترب ذروة عزلته . . وذروة انسانيته .

هنا يفكر المغترب مليا؟ . ان الحياة لم تعد هي الحياة . . والعالم لم يعد العالم وهو يعيش هذه (المحاكمة البشرية) الرهيبة .

متى سترحل . . وهل تبقى سنوات اخرى . . شروطك للبقاء هنا غير كاملة!! هناك ازمات اقتصادية . . وبطالة انت سببها . . لا يمكن ان يحصل هذا . . احزم حقائبك . . وسوف تدفع لك الدولة مبلغا من المال . . ارجوك ان ترحل . . هيا . . !؟

هذه الاسئلة وغيرها ربما لا ينطقون بها.. لكن العامل المغترب يشعر انها موجهة له باستمرار.. يقرأها فورا في عيون الذين يديرون مراكز (الاقامة).. اليست هي العيون التي تتكلم وفي هذه اللحظات.

ورغم هذه الاجواء فان الارصفة الاوروبية مرشوشة بالعرب لأنهم هربوا من جحيم الأنظمة العربية.. تراهم في كل مكان، يتحدثون اليك حديث الحنين والحزن والاغتراب.. حديث الذين نسوا لون الشمس.. وطعم الحياة.. حديث الذين استهلكهم الزمن.. واخبار الوطن الممزق.. حديث الذين تطردهم عيون الاوروبيين من مقاهي وشوارع اوروبا.

والعرب في المهجر تدلك عليهم اصواتهم العالية.. وشعرهم المجعد.. وبشرتهم السمراء التي ما زال لون الشمس يتفيأ في تجاعيدها.

وتدلك عليهم تلك العزلة القاتلة.. وذلك الحصار الاجتماعي المفروض عليهم في مجتمعات (الحضارة اللاانسانية).

انهم يؤلفون (جمهورية) في مدن الغرب.. لكن (الجمهورية) هذه ليس لها حدود.. لانها بلا ارض.. وبلا وطن.. بلا دستور.. وبلا دولة.. فاصبحت تابعة من توابع القهر الاجتماعي في الغرب. ولو توسلت التاريخ، واطلعت على ما فعله العرب في جنوب القارة الاوروبية وخلال ثمانية قرون كاملة في اسبانيا وايطاليا وفرنسا والبرتغال.. ثم اطلعت على نكاية اوروبا بالعرب.. لكان عليك ان تعلن انتحارك؟! قبل ان تعقد الدهشة لسانك.. كانوا يعيشون بكل ما في العيش من حرية وكرامة، وحقوق ومساواة ويمارسون اعمالهم بحرية تامة.. ولا فرق بينهم وبين العرب الحاكمين.. اما اليوم فحدث ولا حرج..! انهم يقومون بعملية انتقام نفسي رهيب لكل ما هو عربي.. وكأن خطأ العرب هو نقل الحضارة اليهم عن طريق اسبانيا؟! وكأن خطأ العرب ترجمة علوم اليونان التي فهموها عن طريق اللغة العربية؟! وكان خطأ العرب هو المحافظة على الحضارة التي كانوا بمنأى عنها.. وكأن خطأ العرب في مد ذلك الجسر الحضاري الذي لولاه لما كانت اوروبا الغربية على ما هي عليه الان من التقدم والرقي.

لكنهم لا يستطيعون اسكات صوت التاريخ.. فالتاريخ يصرخ بقوة بحروفه السومرية الاولى.. وبارقامه العربية الاولى.. وبحضارته العراقية والمصرية..

عذرا.. ايها العزيز.. ما اردت الخوض في هذا الحديث المر.. لولا تنكرهم للعقل العربي ونعته بالعقل الكسول الجامد.. لولا وصفهم للعربي بالذي لم يتخل بعد عن صحرائه!! ولا عن حريمه..!

انهم يقصدون القصد القبيح من وراء تجويع العرب في الغرب وتحميلهم للقيام بأعمال شاقة ووسخة.. لانهم يريدون نموذجا يتماشى ودعواهم الحاقدة.. وكأنهم يصرخون في ملء افواههم وامام اجيالهم «هؤلاء هم العرب.. ولا لوم علينا ان كنا قد استعمرناهم!! او كنا قد ضيقنا عليهم فرص الحياة»!؟

لقد وصل العمال العرب الى اوروبا في فترات ما بعد الحربين الكونيتين في وقت كانت فيه مصانع ومعامل اوروبا بحاجة الى الايدي العاملة لأن الحروب التي اشعلوها قد ذهبت بخيرة شبابهم.

آنذاك وفي تلك الظروف الصعبة التي مرت على الغرب عمل الاوروبيون المستحيل لاجتذاب العمال العرب وخاصة عمال اقطار المغرب العربي.

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية بدا العمال العرب بتشغيل المصانع والمعامل الاوروبية... وبدأوا يعملون في اصعب الحالات... وفي اشق الاعمال ومنذ ذلك الوقت ولحد يومنا هذا... ورغم انهم افنوا زهرة شبابهم في سبيل ازدهار الاقتصاد الاوروبي... ورغم انهم انقذوا اوروبا من ازمة محققة.. رغم كل هذا فانهم ظلوا يعيشون ظروفا قاسية.. فالاجور قليلة.. والمساكن غير صحية.. والاطفال العرب ليست لهم ضمانات تربوية او ثقافية.

ولعل المشكلة الحقيقية التي يواجهها العمال العرب.. تتمثل باطفالهم

الذين ولدوا في الغرب وهم يمثلون اليوم جيلا كبيرا . . جيلا ممزقا بين العادات والتقاليد . . بين الوطن الام . . والوطن المؤقت اوفي فرنسا هناك ما يقارب مليون طفل عربي ولد فيها واطلق عليهم الجيل الثاني . وهؤلاء نشأوا نشأة فرنسية كاملة .

ومن هؤلاء من اكتسب جنسية البلاد . . ومنهم من ظل في منأى عنها . . وحتى الذين تجنسوا وتزوجوا بالاوروبيات ظلت مشاكلهم قائمة . . لان البشرة السمراء . . والشعر المجعد . . والعادات والتقاليد اشياء يحاسبون عليها ويدفعون ضريبتها في المكتب وفي الشارع وفي المقهى . وهكذا فان الزواج بالاجنبية لا يحل المشكلة فالعنصرية قائمة في داخل النفوس . . وتظهر حيث ما يشاء لها ان تظهر وعليك الحذر منها !؟

وحوادث الطرد والاغتيال والاعتداءات المتكررة تجابه العربي المغترب يوميا في المعامل والمصانع في الشوارع والمقاهي . . وان اعترض ورفع صوته باسم القانون والعدالة الانسانية والحضارة . الجديدة . . وايضا باسم اول ثورة صفق لها العالم . . فانهم سوف يهمسون همسة صاخبة : «عد من حيث اتيت . . واتركنا بسلام . . » .

ذات مرة اوقفت شرطة التفتيش شابين عربيين في احدى محطات المترو . . قدم الاول هويته التي تثبت اقامته المؤقته في البلاد . . اما الثاني فكان قد حصل على جواز سفر بدل جوازه العربي . . وقدم نفسه على انه مواطن صالح لكن الشرطة اعترضت عليه قائلة : (. . صحيح . . لكنك سوف تظل بالنسبة لنا اجنبيا . . وما حصلت عليه لا يعني الكثير وعليك ان تفهم ذلك باستمرار . .) .

اصيب العربي بدوار . . وبدت عليه حالة عصبية واضحة . . فاخرج من سترته جواز سفره (الصالح) . . ومزقه في الحال . . ثم ذهب في طريق الحياة .

وفي دواوين الشرطة الاوروبية عبارة تقول « . . وان حدثت جريمة غامضة . . ففتش عن العربي فستجده بطلها . . ؟؟ .

حُروف عرَبيّة

. . واحلى الاشياء التي جذبت صاحبنا واذهشته في الغربة تلك الحروف العربية التي ارتسمت له هنا وهناك

. . وفي مدن الغرب يأخذ الحرف العربي سحره وجماله ويشد العرب شدا جميلا وعندما يلمح العربي حرفه ينجذب اليه بشكل غير ارادي ويحس ان بينه وبين هذا الحرف حوارا ومواصلة وحبا لا يستطيع مقاومته ابدا، وفي فرنسا تكاد تكون ظاهرة اللغة العربية والصحف العربية مألوفة اكتسبت اهميتها بمرور السنين وبمرور الاحداث السياسية المهمة .

وفرنسا ومنذ حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨ زاد اهتمامها بالمشرق العربي ضمن سياسة التنافس الممقوتة مع بريطانيا وفي تلك الحقبة حمل نابليون معه المطابع العربية والمستشرقين وكتب التراث التي تبحث في الحضارة العربية الاسلامية وتاريخ مصر واسطورة الفراعنة والاهرام الخالدة

. . يقال ان نابليون كان يفكر بارتداء السروال العربي والعقال والكوفية لكن حظه العاثر وكثرة المشاكل الفرنسية حالت دون تحقيق احلامه وحتى خليفته كليبير لم يضمن طريق عودته الى فرنسا كما فعل سيده اذ قتل على يد سليمان الحلبي بعد فترة قصيرة من هروب نابليون الى فرنسا .

والمهم من هذا كله ايها العزيز ان هذه الحملة «النابليونية» قد حفزت وبعد ما يقارب قرن من الزمان بعض المثقفين العرب الذين أتخذوا من القاهرة مقرا ثقافيا لهم الى السفر الى باريس واصدار بعض الصحف العربية؟؟

محمد عبده وجمال الدين الافغاني اصدرا جريدة «العروة الوثقى» واديب اسحق اصدر جريدة «مصر القاهرة» ثم تبعه ابراهيم المويلحي وابو نظارة وآخرون لاصدار صحف عربية حملت الحرف العربي ولاول مرة في عاصمة الفن والثقافة باريس؟؟

وكانت الهجرة الصحفية الاولى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بحثا عن حرية الفكر والتعبير وهروبا من اضطهاد الخديوات وفي مقدمتهم اسماعيل وسياسته الاستبدادية وارتباطاته المشبوهة بالفرنسيين والانجليز والجاليات الاجنبية الاخرى وفي هذه الايام وبعد حرب لبنان الدامية تهرب الصحافة العربية من جديد بحثا عن حرية التعبير التي سحقها المحتلون.

وفي باريس وفي احدى فروع شارع الشانزليزيه تتخذ المجلات العربية مقرات لها مجلة «المستقبل» في جورج سانك و«الوطن العربي» في ماربوف وفي نفس الشارع ايضا تدلك «منشورات العالم العربي» الى خنادق الحرف الذي طاردته النار المجنونة وتشرع وانت تدخل المكتب الانيق ان بيروت تولد صغيرة مبشرة بعطائها الذي لا ينضب. ويتذكر صاحبنا انه اول ما شاهد الحروف العربية في الحي اللاتيني «مأكولات عربية» «كوسكوس» و«شكشوكة» و«هامبرغر» على الطريقة العربية.

وعلى جدران الحي اللاتيني وجدران جامعة السوربون واسوار حديقة اللوكسمبورغ تبدأ المعركة السياسية للعرب من خلال حروف عربية راحت تسقط من تشاء وتحيي من تشاء؟

وللحروف العربية وجه آخر وصالات اخرى ومعارض رائعة قدم اليها فنانون عرب وعراقيون وقبل الحديث عن الجامعات التي تدرس اللغة العربية ومعارض اللوحات التي تعكس جمالية الخط العربي تعالوا وأقرأوا مع صاحبنا هذه العبارات على واجهات المحلات التجارية الكبيرة في باريس «نتكلم العربية» و«لدينا احدث الملابس وأرخصها» و«الى الاستعلامات» مدهش هذا؟؟

وتصور العامل العربي المهاجر انها كتبت له لكنه عرف فيما بعد ان

الفرنسيين بدأوا يهتمون بالعرب القادمين من الشرق ومن بحار «البترول»؟

وانهم استحدثوا عبارة «الاغنياء الجدد» لكي لا يخلطوا بينهم وبين العمال العرب المهاجرين ورغم هذه الدغدغة التجارية المفضوحة فان للعرب واللغة العربية وجها آخر لانها اللغة التي ترجمت اليها لغات العالم في عهد المأمون وهي اللغة التي كانت وعاء حضاريا وأداة ثقافية عبر عصور عديدة واذا كان العرب فقدوا مركزهم الحضاري القديم وفقدوا معه مكانة لغتهم العالمية القديمة. فان كثيرا من المستشرقين متفائلون من عودة الروح العربية وتألقها من جديد على الساحة الثقافية.

وفي السوربون هناك حركة واسعة لصالح التراث العربي في جامعات السوربون الثالثة والرابعة وفي معهد اللغات الشرقية وفي كليات متخصصة اخرى هناك حركة في تدريس اللغة العربية وفهم قواعدها وايضا دراسة الحضارة العربية الاسلامية وتأثيرها على الغرب ولكن من المآخذ التي يسجلها صاحبنا على طبيعة التدريس هي اعتماد الاساتذة من فرنسيين وعرب على نصوص قديمة ليس لها علاقة واضحة بالحياة اليومية المعاصرة.

ويشعر الطالب الفرنسي ان «اللغة العربية تكاد تكون جامدة علما ان تدريسها يتم بالفرنسية، ومن المصاعب التي يواجهها الطلبة الاجانب في دراسة اللغة العربية هي النطق لحروف صعبة مثل القاف الذي ينطقونه كافا فعندما تطلب من احدهم لفظ كلمة أنت قلبي يقول لك وبافتخار انت كلبي؟؟ وهم لا يميزون بين السين والصاد تماما مثل معظم العرب الذين لا يميزون الفرق في نطق بعض الحروف الأجنبية.

وفي المكتبة الوطنية في باريس وكذلك في المكتبة الشرقية يجد العربي صعوبة بالحصول على الوثائق والنصوص العربية القديمة. ويجد الحواجز والموانع والتبريرات التي تحول بينه وبين الوصول الى التراث العربي المحفوظ في خزائنهم التاريخية.؟؟

وفي المعارض التي خصصت للخط العربي لا ينسى صاحبنا ابدا جهود الفنان العراقي المقيم في باريس الدكتور عبد الغني العاني الخطاط، هذا الفنان

العراقي الاصيل الـذي جعل من الحـرف العربي سفيـرا يتجول في عقـول ووجدان الاوروبيين.

لقد اقام المعارض العديدة في باريس وبقية المدن الفرنسية وكذلك في لندن وبرلـين وعواصم اخـرى ونالت معـارضه اعجـاب النقاد والفنـانـين الاوروبيين وفوق هذا وذاك راح يدرس علوم الخط العربي في المراكز الثقافية العربية واخيرا في بلدية باريس، ويقال ان الدكتور الفنـان هو اول خـطاط عراقي حصل على اجازة العمل من الفنان التركي المرحـوم حامـد الآمدي وكذلك من استاذه هاشم الخطاط وهو اليوم استاذ للخط العـربي في باريس وعلى يديه تتلمذ الكثير من عرب وفرنسيين لقد شاهد صاحبنا نموذجـا لخط طالبته الفرنسية «بلودين فره» وان ليس للانسان الا ما سعى وفي هذا المجال لا يسعنا الا ان نذكر بجهود فنان عراقي آخر هو الاستاذ محمد سعيد الصكار ومعارضه الجميلة التي جذبت جمهورا كبيرا من الباريسيين.

ويشهد صاحبنا ان حركة كبيرة واسعة ونشطة لصالح التراث العربي الاسلامي وان الاوروبيين يحاولون فهم العرب من نافذة اخرى ليست نافذة النفط والمصالح الزائلة انما نافذة الحضارة والعلوم والفنون.

كما ان دور النشر الفرنسية مثل السندباد وغاليمـار وهاشيت وسـوي بدأت بطبع التراث العربي والاسلامي بشكل يثير الفضول والدهشة.

هذه مظاهر جديدة لم تكون موجودة من عشر سنوات فقط او ليس من حق صاحبنا ان يفرح ولو قليلا ورغم الحزن الساكن فيه.

احتجاج التاريخ

رفع رأسه الى فوق ، بعد ان افزعته اصوات المتظاهرين؟

انها مظاهرة كبيرة تمر امام عينيه لم يعرف عنها شيئا ولم يتأكد من هويتها غير انه شاهد فيها الحرف العربي يتألق وسط يافطة كبيرة رفعتها ايدي العرب في الغربة.

لم يتساءل كثيرا . . . لم يتأخر لحظة واحدة . . . وها هو في وسط المظاهرة انها فرصته الوحيدة ليؤكد التزامه ازاء هذه الحياة.

هذا واحد من مئات العمال المهاجرين الذين سحقتهم الماكنة الغربية بعجلاتها المدمرة واحد من مئات العمال الذين يرون المظاهرة العربية متنفسا لهم لكي يعبروا عن سخطهم وغضبهم ضد الصهيونية التي زرعها الغرب في جسم هذه الامة الصابرة.

في فرنسا العالم يحتج، والتاريخ يحجتج، والجغرافية تحتج، والانسانية كلها تعلن اضراب الاحتجاج ضد النازية الجديدة في المنطقة العربية. . الذين يحتلون لبنان. . ضد الذين يريدون ذبح المقاومة. واحتجاج التاريخ له لون خاص وطعم خاص ورائحة خاصة. فالتاريخ لا يرحم ولا يعرف الشفقة وويل للذين لا يحسبون حساب التاريخ.

ويتذكر صاحبنا ان المظاهرة الاولى التي عرفتها شوارع المدن الغربية كانت مظاهرات خجولة خائفة مرتبكة. وعندما اغتالت الصهيونية الشهيد محمود الهمشري كانت تعتقد ان لا يخرج احد خلف جنازته. . . ولكن الناس

خرجوا في وقت لم يشتد فيه بعد ساعد المقاومة الفلسطينية في الخارج.

وكانت الدعاية الموجهة ضد العرب من القوة التي تسبب منع الكثير للخروج انتصارا للامة العربية.

والحق ان صاحبنا يفرح كثيرا عندما يرى الشباب الفرنسي ينتصرون للعرب.. آلاف الشباب والشابات يهتفون للثورة الفلسطينية ويندون بالعدوان الصهيوني.. حدث هذا في هذه الايام والعدو الصهيوني ما زال يدوس حرمة الارض العربية.. وما زال يعتدي على ارضنا ويدنس مقدساتنا.

ترى لماذا هذا التغيير؟ ولماذا هذا الانعطاف الكبير؟

لم يكن اعلامنا سيد هذه الانعطافة التاريخية لان الاعلام العربي غارق في نومه.. انه الضمير العالمي الذي بدا يتفهم اكثر من اي وقت مضى معنى الصهيونية ومعنى اقامة دويلة صهيونية في قلب الامة العربية.

ان الاعلام بتقدمه وانتشاره وسرعة حركته وجراءة الصحفيين الاجانب يكشف كل يوم تصرفات الارهابيين العسكريين في تل ابيب والاعلام بقدرته على توصيل الحقائق وكشفه الاسرار المذهلة للتعذيب الوحشي الذي يتعرض له عرب الارض المحتلة.. هذا الاعلام هو سيد الانعطاف الكبير في الرأي العام العالمي.

ولا عجب ان نرى الناس يخرجون انتصارا لقضية عادلة هي القضية الفلسطينية فهؤلاء الناس احرار في تفكيرهم.. واحرار في قرارتهم، ولكن العجب كل العجب بان تتآمر بعض الانظمة العربية على المقاومة الفلسطينية وتحاول احتواءها وبشتى الوسائل الجديدة، وتحت غطاء الاتفاقات الاستراتيجية!.

لقد خرج العراقيون والعرب والفرنسيون وهم يهتفون في شارع الشانزليزيه، ضد العدوان الصهيوني على منشآت العراق النووية.. خرج هؤلاء يستنكرون وبقوة الغارة ضد العقل العربي الجديد.

لكن صاحبنا رغم كل المحاولات في الرأي العام العالمي يتألم من موقف

المثقفين العرب المقيمين في المهجر.. يستنكر عليهم تقاعسهم وكسلهم والا كيف نفهم غيابهم عن معظم المظاهرات التي تهم قضايانا القومية المشروعة.. الم تكن الكلمة موقفا؟.

كيف يفكر هؤلاء؟ وهل يعتقدون ان الاقامة في باريس تعفيهم من هذه المهمة الوطنية؟ وصاحبنا يذكرهم بعمالقة الادب الذين كانوا وما زالوا يتصدرون المظاهرة الكبيرة؟ الم يخرج اندريه مالرو واراغون وجاك بيرك وروجيه غارودي في مظاهرات من اجل الحرية؟ حرية الشعوب المضطهدة؟؟.

اين يقف اذن المثقفون العرب من هذه الاسماء الكبيرة التي لمعت في دنيا الفكر والادب والفن، في دنيا المواقف الملتزمة؟

اليس ظاهرة غريبة ان تجد العامل غير المتعلم يشترك في مظاهرة بمجرد وجود حروف عربية على يافطة؟؟ ولا يخرج المثقف العربي الكبير في مظاهرة هو مدعو أليها أصلا؟

لكن صاحبنا لا ينسى ابدا المواقف الكريمة لرهط من المثقفين الملتزمين الذين اصدروا بيانات التايد للقضية الفلسطينية وبيانات المساندة للعراق الذي يخوض حربه الضارية ضد الطغمة الحاكمة في طهران وقم.

لا ينسى صاحبنا ابدا اهتمام بعض المثقفين الملتزمين باخبار العراق الذي توج ببيان مهم يطلب من الاقطار العربية قطع علاقتها الدبلوماسية مع النظام في إيران. ولا ينسى ابدا قول بعضهم «لا تقراء علي مسودة البيان فانا مع العراق كيفما يفكر وكيفما يقول». فالعراق ايها العزيز يحتل مكانة خاصة في قلوب المثقفين سواء العرب منهم او الاجانب.

الفرنسيون مثل جاك بيرك وروجيه غارودي واندريه ميكل وفنسان مونتاي وبير روسي وشارل سان برو وفيليب سان وبير وغيرهم اصدروا بيانا يندددون فيه بالعدوان الصهيوني على منشآت العراق النووية. لقد حدث هذا بعد اسبوع فقط من عدوان الصهاينة على العقل العربي الجديد على العراق امل العرب في نهضتهم الجديدة.

كل هذا واقع وكل هذا نلمسه ضمن حركة سريعة تجري لصالح العراق والتاريخ فالعراق هذا الذي رسم الرؤ ية الاولى للكون لا بد وان يظل وكما كان وقل هو العراق . . كان في الامس . . وسيكون غدا .

وطن العـين

وعراقنا الفتي يفاجيء الناس كل يوم من خلال هذا الانسان الجديد الذي يتألق وسط المنابر الدولية.

وهذه هيئة الامم المتحدة تعلن انتصار العراق في معركته الديبلوماسية فتتوج لرئاسة دورتها الحالية احد هؤلاء الفتية الذين ارتسمت في عيونهم انهر وجبال وسهول العراق. ولم تكن الامم المتحدة نهاية المطاف بل هي البداية العراقية بعينها.

وهذا الاهتمام العالمي لم يكن مفاجأة لنا نحن العراقيين الذين نعرف حجم العراق الذي يتجاوز حدود المكان.. وحسابات الزمان.. ولم يكن هذا الاهتمام مفاجأة للعرب الذين عرفوا العراق وقدروه حق قدره. غير ان تالق العراق عربيا ودوليا ربما يكون مفاجأة غير سارة للذين تعبت عيونهم من رؤية النور العربي الجديد المتالق في سماء الدنيا العربية.. سيكون مفاجاة حزينة للذين لم ولن يتـوصلوا الى فك رمـوز اللغز العـراقي ولن يتوصلوا الى فهم صيرورة وحركة الارض التي نبت فيها اول حرف اضاء للانسان طريق المعرفة والرجاء.

وصاحبنا الذي لم يضل الطريق ابدا يعرف هذا جيدا، وهو وعندما قدم الى اكبر مركز حضاري وحشر نفسه وسط مجتمع متحضر لم ينس ابدا انه ينتمي الى اول مدينة حضارية عرفها التاريخ القديم وهي بابل، ولم ينس انه ينتمي الى اكبر مدينة علمية عرفها التاريخ الوسيط هي بغداد منارة الشرق والغرب.

وكلما تعلق القوم وتغنوا بحب مدنهم كلما زاد تعلق صاحبنـا المغترب باصالته وحضارته ووطنه . . وانحنى لقراءة التاريخ العربي قراءة جديدة تحمل معها التساءول والذهول؟؟

غير ان صاحبنا لم يتعب نفسه كثيرا لانه كثيرا ما راى وطنه في عيون كبار الشخصيات السياسية والفكرية التي زارت العراق وتعلقت به قلبا وقالبا .

هذا هو الزعيم الديغولي المعروف جاك شيراك ، بعد ثلاث زيارات الى العراق حدثني طويلا عن لحظاته السعيدة التي توزعت بين بغداد وبابل وسامراء .

وفي احدى المعارض العراقية التي اقيمت في العاصمة الفرنسية . . راى جاك شيراك صورة كبيرة لملوية سامراء وراح يشرح لسفيرنا السابق نوري الويس ولي . . كيف صعد الملوية حتى القمة . . وكيف كان مسرورا لهذا الحدث التأريخي الجليل .

ومن حقنا ان نفرح ونفاخر بتاريخنا العظيم كما من حق الفرنسيين وغيرهم التفاخر في تاريخهم ولكن الذين يفهمون التاريخ ويفهمون حركته تطوره يقدسون العراق حق قدسيته وينحنون اجلالا له .

هناك الذي يفهم العراق على هذا النحو فالفيلسوف الكبير روجيه غارودي قال لي مرة في احد اللقاءات الصحفية «العراق يشكل افقا حضاريا واسعا انه الذي رسم لنا حدود الرؤ ية الاولى للكون» .

وهذا جاك بيرك المفكر الفرنسي المعروف واحدا من بين الذين عشقوا العراق حضارة وتأريخا هذا الرجل الصادق يعتقد ان للعراق سرا تراه في الانهار الخالدة وفي الجبال والوديان وفي تراب ما زال يخفي في ذراته حضارات انسانية كاملة . . ولنبحث عنها جميعا ، ولنفك رموزها المحيرة؟ هكذا ظل يتساءل دائما .

وفي العراق كما يعبر بيرك وفي كثير من المناسبات تواصل ما بين الشخصية العراقية والتاريخ لان البعد الذي تعيش في رحمه مثل هذا التراكم

الحضاري الكبير لا بد وان يخرج على الدنيا بمفاجآة تعكس ابداع هذا الانسان. . وعندما شن النازيون الجدد حربهم القذرة ضد العراق قال «لا خوف على العراق».

وبيير روسي واحد من اعلام الاستشراق ايضا هذا الرجل قال في كتابه الكبير عن العراق والذي نشر قبل سنوات قليلة قال مخاطبا العراقيين «ان العالم من جديد ينتظركم على اعتاب بابل».

تلكم هي العين المسافرة التي تحمل العراق مثل نخلة خضراء كشفت عن اسرارها شمس الصباح الذهبية.

وفي التاريخ تمر الايام وتتراكم الاحداث لكن العراق يبقى بلاد الرجال الامجاد الذين اذهلوا العالم بارادتهم وعدلهم.

واحداث الحرب ونسف المفاعل وكل ما يدور في الافق من غيوم داكنة ومن زبد يطفح على سطح البحر العراقي ستمر مثل سحابة صيف لانها احداث تبقى في المحصلة الاخيرة مثل رصاصات طائشة تطلق على قمم الجبال الشامخة.

والعراق شجرة خضراء كلما حاولوا تقليمها كلما انتشرت اغصانها بكثافة اكثر وهيهات ان يصلوا الى جذورها لانها اعمق من مدى الرؤ ية عندهم.

مفاجأت العراق للاعداء كثيرة، لقد نسفوا المفاعل النووي وظنوا انهم قد نسفوا العقل الجديد وليتهم عرفوا انه ليست هنالك قوة في الارض تمنع العراقيين والعرب من التفكير في مستقبلهم وحضارتهم.

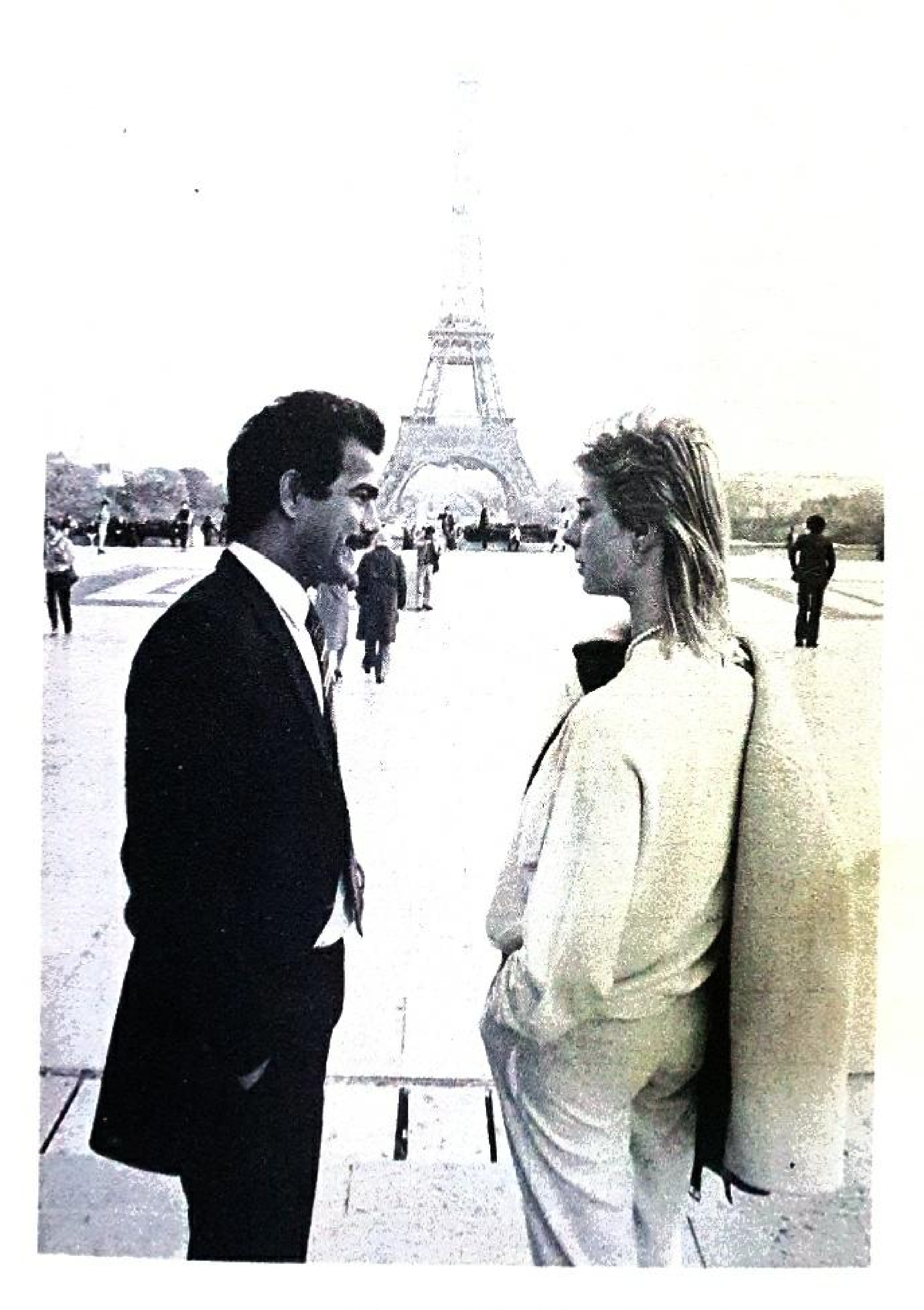
وفي فرنسا يرحب رئيس الجمهورية الفرنسية السيد ميتران بالاستاذ طارق عزيز وفي قاعة قصر الاليزيه وتحت ظلال لوحات تاريخية كبيرة يهمس المسؤ ول الفرنسي الكبير قائلا: «نحن ما زلنا نعيش على بقايا حضارتكم».

ولم يكن رئيس الوزراء السيد موروا اقل صراحة من رئيس الجمهورية لقد قال لي بعد مباحثاته مع السيد طارق عزيز والتي استمرت خمس ساعات: «لم يحدث وان استقبلنا مسؤ ولا من العالم الثالث بمثل هذه الاهمية».

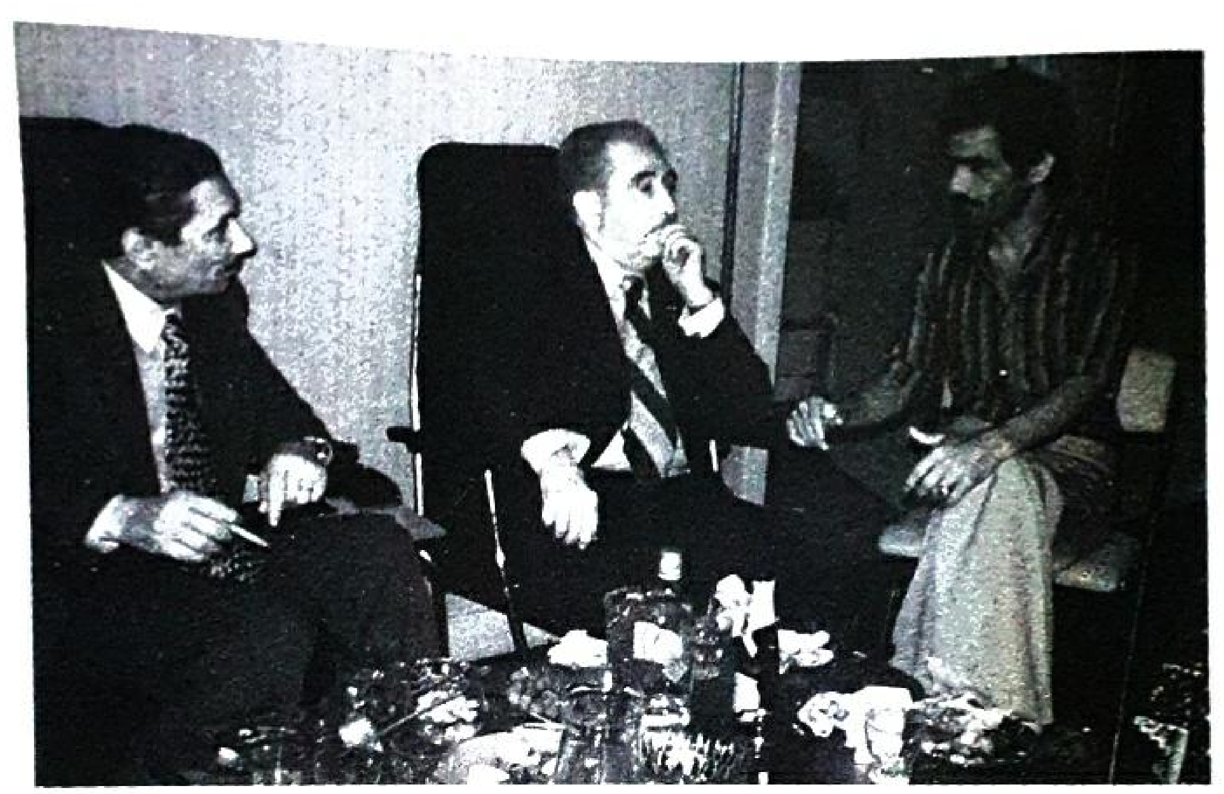
وفي احـدى الامسيات الثقـافية الاخيـرة التي اقيمت في باريس كـان الترحيب على اشده بالاستاذ فرح والدكتور محمد المشاط سفيرنا الجـديد في فرنسا كل هذا يحدث والعراق مشغول بسحق ماكنة المتعصبين عـلى حدوده الشرقية .

حقا لقد قال مستشرق فرنسي كبير وبعد ان توقف قليلا على نهر دجلة قال : «ايها الناس تعالوا معي لنسمع صوت التاريخ» .

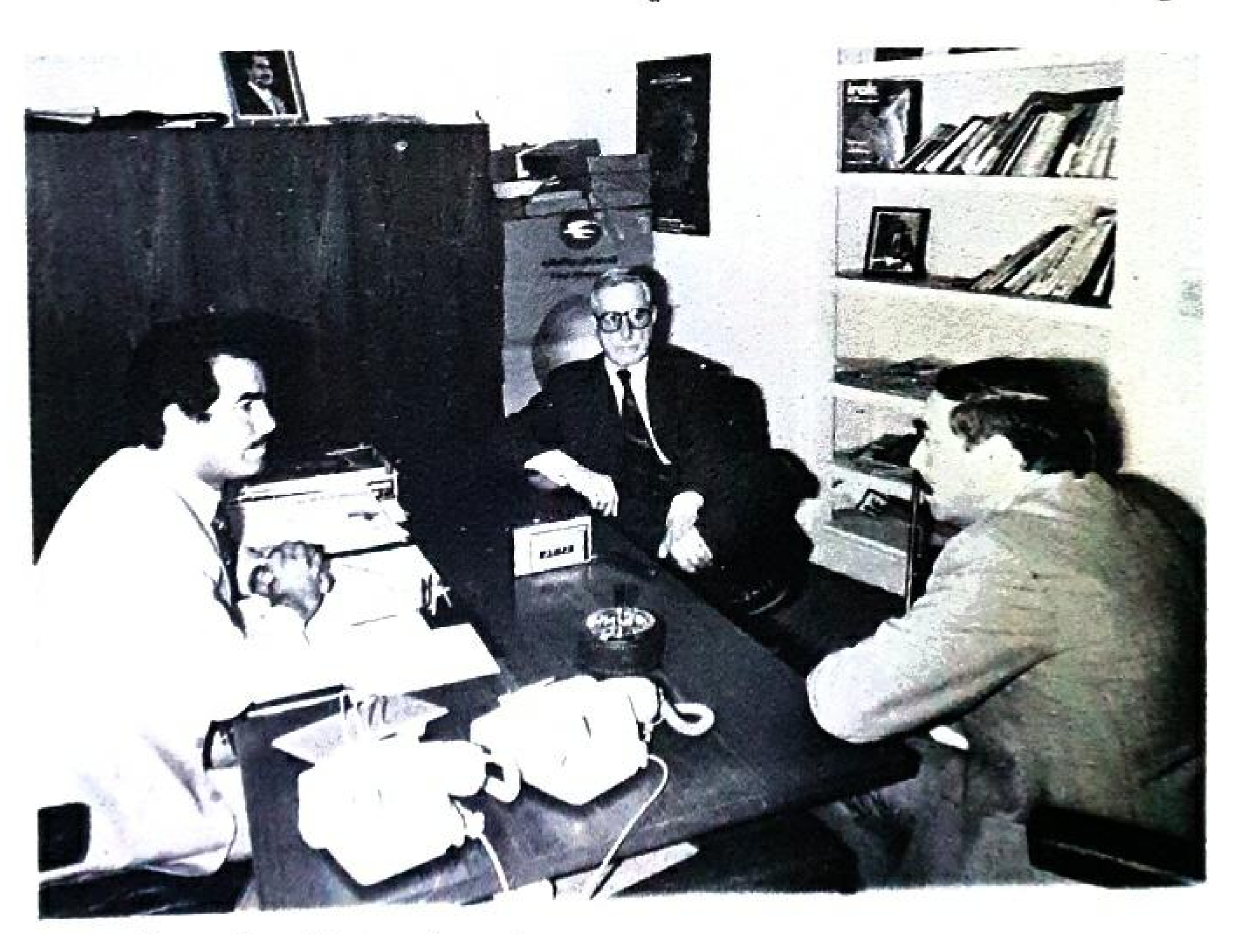
فهرس المحتويات



.. المؤلف مع احدى الحسناوات امام برج ايفل



مع جاك بيرك وعبد الوهاب البياتي



مع لوسيان بيترلان والجنرال بوي



في بيت الشاعر آراغون



.. مع المفكر الفرنسي رجا غارودي

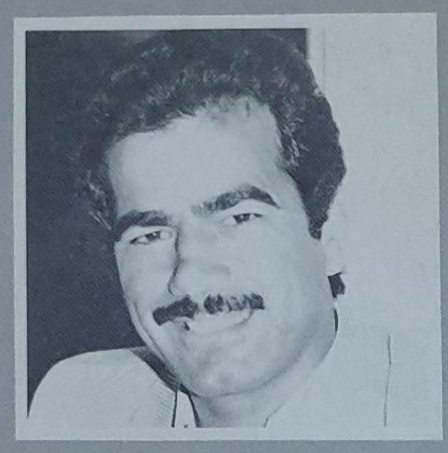




.. مع ميشال جوبير



مع جاك شيراك



«.. لا أدري كيف يمكنني الكتابة عن صور وحالات متناقضة..؟ لا أدري كيف أبدأ الحديث عن مدينة يمكن ان تكون اجمل مدينة في الدنيا.. ويمكن في ذات الوقت ان توصف بانها مدينة الفوضى والجنون والاضطهاد النفساني المستمر؟!!.. انها باريس؟

«.. وأغلب الظن ان فلاسفة الاغريق الذين تفننوا في الحديث عن معالم «المدن الفاضلة» وغيرها، لم تخطر على بالهم مدن هذا الزمان، وربما يكون الرسام السوريالي سلفادور دالي أجدر منا جميعا لرسم لوحة متكاملة عن الحياة في باريس.. ويكفي له رسم كلب جميل تقوده باريسية حسناء.. بينما انهمك عامل عربي مهاجر بتنظيف «فضلات» الكلب الملعون من الشارع الجميل؟!!.

«وصاحبنا الذي قرر الاغتراب منذ حفنة من السنين يدرك هذاجيدا، لانه يعيش على ارض بلا وطن.. ووطن بلا ارض.. ويشعر في لحظة ما.. انه ليس الا نزيل حدود ثلجية؟. ومخلوق غريب يرى نفسه في عيون الذين لا يشعرون بوجوده!.

«.. قلق يومي، وهلوسة.. وشعور مستمر بالمرارة، وضريبة نفسية يدفعها الى شوارع وحانات وبنوك المهجر.

«وكثيرا ما يحاول صاحبنا مداعبة نفسه، فيتظاهر بالفرح والحرية.. ويعربد على طريقته الخاصة.. ويتأبط النساء في مقاهي وشوارع الحي اللاتيني، ويجعل من نفسه عصفورا سعيدا لا يعرف الحدود؟!.

«غير انه كثيرا ما يكتشف حقيقة نفسه من خلال خبر صغير يدسه المذياع في اذنه.. او اغنية عربية راحت تصدح في اعماقه (خليك هنا.. وبلاش تسافر..)».

الثمن ٦ دولارات او ما يعادلها